الجزء الخامس

سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن النبي محمد (ص) قال:

"من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح و كذب به و هود و صالح و شعيب و لوط و ابراهيم و موسى و كان يوم القيامة من السعداء. "

مجمع البيان - ص - ١٤٠ - الجزء5 - ،6

عن رسول الله (ص) قال:

"شيبتني سورة هود و أخواتها. "

نور الثقلين - ص - ٣٣٤ - الجزء - ٢-

عن الامام الباقر (ع) قال:

"من قرأ سورة هود في كل جمعة بعثه الله يوم القيامة في زمرة النبيين وحوسب حسابا يسيرا و لم تعرف له خطيئة عملها يوم القيامة. "

مجمع البيان - ص - ١٤٠ - الجزء - ٥–

الأطار العام

لعل الآيات (١١٢ - ١٢٠) في نهاية السورة تحدد الأطار العام لها . حيث تأمر الرسول بالأستقامة ، و الأبتعاد عن الظالمين ، و اقامة الصلاة ، و الصبر ، و الأحسان.

كما تذكره بدور بقية الله - ممن ينهون عن الفساد - في التاريخ ، و كيف ان الله انجاهم وحدهم بينما اهلك الظالمين الذين اتبعوا ما اترفوا فيه . و كانوا مجرمين!

و تبين : ان الله لم يهلك القرى الا حين انعدم الصلاح بينهم.

و ان الأختلاف سنة تاريخية بين الناس و ان الله لم يخلق الناس ليعذبهم -بل ليرحمهم - بيد انه قد قضى بان يملأ جهنم من الجنة و الناس اجمعين.

و ان القصص التي ذكرها الرب كانت بهدف تثبيت فؤاد الرســـول . كما لبيان الحق ، و لتوفير الموعظة و الذكرى للمؤمنين.

و تكـــــــاد تكون آيات سورة هود تفصيلا لهذه البصائر المحكمة ببيان جوهررسالات الله . التي حملها النبيون عليهم السلام الى الناس ، و تحملوا -من أجلها - الوانا من العناء ، و انجاهم الرب من بطش قومهم ، و انزل العذاب الأليم على الكافرين برسالاته.

و هكذا .. اضحت الرسالات هذه محور النجاة و العذاب فمن اتبعها انجاه الله . و من خالفها لحقه العذاب و اللعنة في الدنيا . و النار و الشقاء في الآخرة.

جـوهـر رسالات الله . و في طليعتها رسالة القرآن التي احكمت آياته ثم فصلت ، هي : توحيد العبودية لله . و الأنذار و البشارة . و الأمر باستغفار الرب في الدنيا و التوبة اليه . لضمان حياة سعيدة . (٣/١)و اتقاء يوم البعث . و الخشية من الله الذي يعلم سرهم و إعلانهم و يعلم كل شيء او ليس قد خلق السماوات و الأرض في ستة ايام . و الهدف هو ابتلاء الناس.

و لأن تـم تأخيــر العذاب عن هؤلاء الذين كفروا بالله . و رسالاته و بيوم الدين .فلأنه يوم يأتيهم لا يؤخر عنهم . (٨/٤)و بعد بيان طبيعة الجزع عند البشر الا المؤمنين منهم يثبت القرآن فؤاد النبي (ص) بانه منذر اما المنتقم فهو الله الوكيل على كل شيء ، ثم يأمره بتحديهم بان يأتوا بمثل القرآن . و إذ يظهرون عجزهم فليعلموا : ان القرآن انزل بعلم الله . (١٤)و هكذا جاءت رسالات الله على لسان نوح . و كانت فصول الجدل .. و الصراع بينه و بين قومه تعكس حالة العناء عند قومه . و قوة الأستقامة عند نوح عليه السلام، و انتهت بالطوفان ، حيث انجى الله نوحا و الذين آمنوا و اغرق الظالمين و بينهــم ابن نوح الذي لم يغنعنه انه ابن نوح لأن محور النجاة هو توحيد الله . (٤٨/٢٥)ومن بعد نوح جاء هود يدع قومه عادا . بتلك الرسالات فلم يستجيبوا له و جربينهم صراع مشابه . و عاندوا و تحداهم و ايده الله و اهلكهم بعذاب غليظ . (٦٠/٥٠)و كذلك ثمود حين جاءهم اخوهم صالح . و أمرهم بتوحيد عبادة الرب و جاءهم بآية هي ناقته التي لم يلبثوا ان عقروها فجاء امر الله و نجى الرب عبده و رسوله صالحا و اخذ الذين ظلموا الصيحة(61/68) . و هكذا .. ابراهيم و لوط و شعيب و موسى . و بالرغم من أن جوهر رسالات الله واحد . الا ان هناك بعض التفاصيل المختلفة بسبب اختلاف الظروف .

و بعد بيان كل تلك القصص يبين السياق العبرة منها . و تذكر بالقيامة . حيث ان عذاب الله في الدنيا ، اية عذابه في الآخرة ، كما ان رحمته و نجاته هنا اية نعيم الجنة التي هبتها للمؤمنين و اخيرا يذكر القرآن رسوله بضرورة الأستقامة . ذلك الأمر الذي شيب الرسول - صلى الله عليه و آله - كما جاء في حديث مشهور.

كتاب أحكمت آياته ثم فصلت

هدى من الآيات

ما هو الكتاب ؟ انه آيات محكمة قد اتقنتها حكمة الرب ، ثم فصلتها و أوضحت الحقائق بها ، و الذي بعث بالكتاب هو الرب الحكيم الذي يمنع الفساد و يخلــق الصلاح ، و الخبير العالم بألطاف الأمور سبحانه.

و من محكمات آيات الكتاب التذكرة بالله ، و الأمر بأخلاص العبودية له ، و أن الرسول نذير و بشير منه ، و كلما ابعدت الخطايا و الذنوب و الغفلات البشر عن رحاب ربهم ، فعليهم ان يستغفروه و يتوبوا إليه ابتغاء الحياة السعيدة في عاجل الدنيا حتى يبلغ أجله ، وابتغاء فضل الله ، و اذا استمر البشر في غيه ، و تابع سيرة الضلالة و الانحراف ، فانه يخشى عليه من عذاب يوم كبير ، و غدا حينما يرجع البشر الــى ربهم ، يبعثهم من جديد بقدرته الواسعة .. آنئذ يحاسبون عند الله.

بينات من الآيات

[1]ماذا تحمل هذه الكلمات الثابتة المكتوبة (الر) في طياتها ؟ انها تحمل

آيات تشير إلى الحقائق ، تذكر بها و تهدي العقول اليها.

[الر كتاب احكمت اياته ثم فصلت]

فالقرآن ليس أفكارا بل هو آيات تشير مباشرة الى الحقيقة لكي يراها البشر فور ما تشير إليها ، و الآية بمعنى العلامة و الكلمة مأخوذة من مادة (أوى (بمعنى الذهاب إلى البيت و كأن العلامة تذهب بك الى رحاب الحقيقة ذاتها ، و القرآن هو ذلك الكتاب الذي يبصركبالحقائق.

و آيات القرآن محكمة و مفصلة ، اما الاحكام فهي آتية من حكمة الله ، التي لا تدع ثغرة في كلماته ، و لا سبيلا للباطل إليها ، بل يصب الكلمات على مقياس الحقيقة دون زيادة بوصة او نقيصة بوصة ، أو فراغ في جزء ، فهو يقول كل الحقيقة و بكل أبعادها ، و اما التفاصيل فهو تحديد تلك البصائر المحكمة ضمن واجبات و محرمات فرعية ، فالقرآن مثله مثل الشجرة راسخة الجذور منتشرة الفروع.

و الأحكام بحاجة الى حكمة ، فمن لا يعرف الخطوط العامة لأنظمة الحياة ، كيف يتسنى له ان يضع برنامجا متكاملا لها ، و يعطي رؤية صادقة ، كما ان التفصيل بحاجة الى خبرة و معرفة سابقة لدقائق الأمور و لطائفها ، و الله حكيم خبير.

[من لدن حكيم خبير]

و تلك الحكمة التي نشاهدها في الاطار العام للكون ، و تلك الخبرة التي نراها في أدق الأمـور ، و ألطفها مثل صنع أوجه النملة و مفاصل أرجلها ، او في صنع الخلية الحيـة ، أو صنع الذرة المتناهية في اللطف . إن كل ذلك شاهد على حكمة الله و خبرته ، و أن خالق المجرات الحكيم و صانع الذرة الخبير ، هو الذي أمر بحكمته إخلاص العبودية له ، و وضع بخبرته برنامجا تفصيليا لهذه العبادة.

التوحيد و فروعه

[2]و من الآيات المحكمة الموجودة في الكتاب دعوته الصريحة إلى نبذ الشركاء من دونه.

[ألا تعبدوا إلا الله]

إذ أن التوحيد بصيرة عامة تتفرع عنها سائر الشرائع الألهية ، و بعدها تأتي الرسالة التي هي بدورها فرع من فروع التوحيد.

[إنني لكم منه نذير و بشير]

[3]و استغفـــار الله فرع ثان للتوحيد . إذ حينما يعمـــر قلب الفرد بأيمـــان صادق بالله ، و يعرف عظمته و كبرياءه و نعمه التي لا تحصى ، آنئذ يشعر الفرد بالصغار امام الله ، و يستغفره و يتوسل اليه ، لذلك جاء في آية اخرى " فاعلم أنه لا إله الا اللـه و استغفـر لذنبك " (١) حيث ان الاستغفار جاء بعد الأيمان بالله لأنـــه فرع متصل به ، و بعد حالة الاستغفار تأتي مرحلة التوبة و هي العودة الى الله و خلـوص العبادة له و اخلاص العمل في سبيله ، فلا يكفي الندم على ما مضى من الذنوب ، بل لابد من إصلاح المستقبل.

[و أن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه]

و بالاستغفار و التوبة يوفر الرب لعباده حياة طبيعية هنيئة ، إلى وقت محدود.

[يمتعكم متعا حسنا إلى أجل مسمى و يؤت كل ذي فضل فضله](١) سورة محمد آية ١٩

أي كلما زاد الفرد من تقربه إلى الله ، و استغفاره له و توبته اليه ، كلما منحه الله فضلا أكثر.

[و إن تولوا فأني أخاف عليكم عذاب يوم كبير]

من نوع عذاب عاد و ثمود ، حيث انه في يوم واحد حطم مكاسب دهر طويل . لذلك سمى باليوم الكبير.

[4]و بعده يعود الناس الى الله ، حين يبعثون في القيامة إلى الله ، و ذلك بقدرته البالغة التي لا يقف في طريقها شيء.

[إلى الله مرجعكم و هو على كل شيء قدير]

و يبدو من هذه الآية و من آيات أخرى أن اهم حاجز نفسي امام إيمان الناس بالقيامة ، هو عدم إيمانهم بقدرة الله على البعث الجديد ، لذلك يذكرنا السياق بعد ذكر القيامة بقدرة الله.

إحاطة علم الله

هدى من الآيات

في الدرس الأول من سورة هود ، بين القرآن بعض الآيات المحكمات و استعرض الخطوط العريضة للرسالة ، وفي هذا الدرس يدخل الكتاب في التفاصيل ، بدء بواقع كفر و جحود الناس ، و يبدو أن أحد الاسباب الاساسية للجحود هو الجهل باحاطة علم الله بهم ، وبالدوافع الأصيلة لكفرهم ، فتراهم يثنون صدورهم و يعطفونها بهدف إخفاء حقيقتهم بينما الله يعلم أسرارهم حتى في لحظة تسترهم بالثياب.

و كل حي يدب في الأرض رزقه على الله ، و يعلم أيام حياته ، و ميعاد موته . كل ذلك مكتوب في الكتاب الواضح ، و الله خلق السماوات و الأرض في ستة أيام ، و كانت سلطته و قدرته مهيمنة على الماء المخلوق الأول الذي جعل منه كل شيء حي . و حكمة الخلق هي ابتلاء الناس ليعلم من هو الاحسن عملا ، فيجازى في الآخرة ، بينما لا يؤمن البعض بالآخرة ، و يزعمون أنها سحر مبين ، الغاية من طرحهتمويه الحقيقة ، أما لو أخر الله عنهم عذاب الدنيا الذي هو طريق آخر لتنبههم فستراهم ينكرونه اصلا ، و يقولون : ما الذي يحبس العذاب عنا ما دمنا مستحقين له ، ولا يعلمون ان العذاب لو نزل بساحتهم فلا يصرف عنهم ، و سوف يحيط بهم ذلك الذي كانوا به يستهزؤون.

بينات من الآيات

إحاطة علم الله

[5]الكفار يثنون صدورهم ، استخفاء للحقيقة ، فتراهم يسرون في قلوبهم و كأنهم يطوون صدورهم فوق الشر ، و يعطفونها عليه ، أو كأن المرء منهم حين يريد ان يقول سرا ينحني و ينثني - تبعا لذلك - صدره ، و لكن هل ينفعهم ذلك شيئا . كلا.

.لأن الله عليم بسرهم و علانيتهم ، و ما يتداخل في صدر البشر من شهوات و أهواء و عوامل مختلفة للرفض و الإنكار كالاستكبار و الجهل و اللامبالاة و حب الدنيا و الدعة.

]ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم]في اللحظات التي يختلون بأنفسهم تحت غشاء الثياب ، حيث يبقى الفرد و وجدانه و يحاكمه وجدانه على انكاره للرسالة ، و كذبه و نفاقه ، و الله شاهد آنئذ عليه.

[يعلم ما يسرون و ما يعلنون إنه عليم بذات الصدور][٦] و علم الله محيط بكل شيء و كذلك رحمته ، فهو الذي يرزق كل دابة في الأرض ، فكيف لا يعلم بها.

[و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها و مستودعها]

أي يعلم حياتها و موتها .. أو في بيتها و في رحلتها.

[كل في كتاب مبين]

مكتوب بوضوح و بتحديد.

الكفار بين عذاب عاجل و آجل

[7]فالله محيط علما و رحمة بما في الأرض من دابة ، و قبل ذلك خلق السماوات و الأرض في ستة أيام خلقا بعد خلق ، فارضا هيمنته و سلطانه على الكون ، و في ذات الوقت ناشرا رحمته و بركته في ستة أيام.

[و هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام و كان عرشه على الماء]يبدو أن عرش الله هو قدرته و سلطانه ، و لانه لم يكن آنئذ شيئا ، غير مادة سائلة كالماء ، فان عرش ربنا كان مستويا على الماء و الله العالم.

]ليبلوكم أيكم أحسن عملا[

ان حكمة خلق البشر هي امتحان إرادته و عقله ، و هذه الحكمة لا تتحقق من دون الإيمان بالآخرة ، و لانهم يكفرون بالآخرة تراهم لا يخضعون للرسالة الإلهية.

]و لئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين]يبدو ان الكفار كانوا يتخذون موقفا سلبيا من الرسالة و من توجيهاتها ، و يعتبرون كل كلماتها تمويها و تضليلا - كما السحر - فلا يفكرون فيها ليعرفوا صحتها ،بينما لو تدبروا قليلا في خلق السماوات و الأرض لرأوا آيات الحكمة ، و أن تطور الكون و تكامله ، و تحقيق كل جزء منه لغاية معينة ، شاهد على ان البشر خلق ايضا لتحقيق هدف محدد ، و انه لا يكون إلا بالابتلاء ، و تمام الابتلاء هو الجزاء في يوم البعث.

[8]و الجزاء آت عاجلا أم آجلا ، و إن تأخيره ليس إلا لحكمة مثل الابتلاء ، بيد أنهم يتخذون من هذا التأخير مبررا للكفر و الجحود.

[و لئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه]ان التأخير ليس بلا خطة حكيمة و تقدير رشيد ، انما هو لوقت معين (امة معدودة) و لكنهم يتساءلون عن سبب تأخيره ، و كأن التأخير دليل عدم العذاب ، و هذا من أبرز نواقص البشر ، انهم يخشون الجزاء العاجل ، ويكفرون بالجزاء الآجل ، و لكن عليهم أن يعلموا.

[ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤون]فلقد كانوا يستهزؤون بالعذاب ، و ها هو محيط بهم ، يحاصرهم دون أن يقدروا على ردة ، بينما استهزؤوا سابقا به.

الأنسان بين اليأس و الفخر

هدى من الآيات

في هذا الدرس يذكرنا الله بما فطر عليه البشر قبل التربية و التزكية من صفات جاهلية . إنه يتعرض لليأس و الكفر بالنعم اذا فقد نعمة.

اما اذا أصاب نعمة بعد شدة ، يزعم ان هذه الحالة ستبقى عنده ، فينغمس في غمرات الفرح و الفخر ، اما الصابرون الذين يقيمون الأحداث كلها السابقة و القادمة و الحاضرة تقييما سليما فحالتهم مختلفة ، فهم ليسوا بحيث تفقدهم النعمة او الشدة توازنهم و لذلك فلهممغفرة و اجر كبير.

و الرسول ينبغي ان يجسد أعلى الصفات الحسنة ومنها الاستقامة ، فلا ينبغي له ان يهتز للمواقف الجاهلية التي تنبع من هذه النفسية الضيقة الأفق ، التي تطالبه بكنز ينزل عليه ، أو ملك يساعده ، أو ما يقولونه : ان الرسول قد افترى الرسالة ، بينما يتحداهم القرآن بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات بمستوى القرآن في علمه و بلاغته ، و يقارنوها مع القرآن ، و يشهدوا على ذلك بمن شاؤوا ان كانوا صادقين في اتهامالقرآن بأنه مفترى.

و لكنهم لا يستجيبون حتما لهذا التحدي و لابد ان نعلم ان الذي انزل انما انزل بعلم الله و هو صنيعة ذلك العلم المحيط بكل شيء ، و علينا أن نسلم للقرآن بكل جوانحنا و جوارحنا.

و يبدو أن هذا الدرس تمهيد لبيان حقيقة الرسالة و قصص استقامة الرسول ضد خرافات الجاهلية.

بينات من الآيات

بين النعماء و الضراء

[9]ما دامت النعمة من الله ، فزوالها عن البشر لفترة أو وجودها عنده في وقت آخر ليس دليلا على بقائها او زوالها الى الابد ، اذ ان تلك القدرة التي منحت النعمة او ازالتها انما لحكمة بالغة ، و الله قادر على ان يعيدها وفق تلك الحكمة و مع توافر شروطها ، لذلك لا ينبغي ان يحيط اليأس بالبشر عند افتقاد النعم ، و لا يجوز ان يكفروا بسائر النعم التي اسبغها الله عليهم ، و يلبسوا نظارة سوداء يبصرون الحياة من خلالها ، فلا يرون شيئا الا ملبسا بالسواد.

]و لئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعنها منه إنه ليئوس كفور][١٠] و عند النعماء و هي حالة هبوط النعمة التي لو جاءت بعد الشدة و الضراء لكانت اعمق أثرا في النفس و لذلك قد تفقد توازن الانسان ، و يحسب ان الصعاب قد ودعته الى الابد ، فيستبد به الفرح و السرور البالغ ، و لا يرى اي نقص او عجز في ذاته ، بل يظل يركزنظره حول تلك النعمة و يفتخر لها.

]و لئـــــــن أذقنـــاه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرحفخور[

[11]و سواء الكفر و نكران النعم ، او الفخر و الغفلة عن النواقص فانها من صفات الانسان قبل ان تزكيه الرسالات السماوية ، التي تبين له ان النعمة اذا جاءت فهي محكومة بشروطها و أهدافها ، و الحكم التي ورائها ، و كذلك النقمة ، و ان على الانسان الا ييأس معزوال النعمة التي هي (رحمة الله) و لم تكن جزءا من ذات البشر . لأن هذه النعمة قد تعود اليه هي او احسن منها ، ثم لأن هناك نعما أخرى اعظم منها لا تزال قائمة عنده فباليأس و الكفر سوف تزول - لا سمح الله - تلك النعم ايضا ، فلا يخرجك الفرح عن طورك و تفتخربالنعمة ، فان هناك نواقص كثيرة لا تزال تحيط بك ، و عليك ان تعمل من اجل إصلاحها جميعا و هكذا تجد المؤمنين صابرين يقيمون الاحداث جميعا ، فيبصرون في ايام شدتهم ايام رخائهم المنتظرة ، و يتذكرون ايامهم الماضية ، و يعلمون ان الحياة في تغير دائم ، و ان سببالتغير المباشر و غير المباشر هم انفسهم فعليهم اذا ان يعملوا صالحا في ايام الشدة لكي لا تدوم ، و في ايام الرخاء لكي لا تزول ، و لكي يبلغوا درجات اعلى منه.

[إلا الذين صبروا و عملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة]يغفر الله ذنوبهم فترتفع اسباب الشدة.

[و أجر كبير]

بسبب اعمالهم الصالحة فهم في تقدم مستمر.

انما انت نذير

[12]لأن رسالات السماء جاءت لتزكية البشر ، فيجب ان يستقيم الرسول (ص) في ابلاغها حتى و لو عارضت أهواء الناس ، و ليس لهم ان يتركوا بعضالرسالة تنازلا لرغبة الناس او خشية من غضبهم لانهم آنئذ لا يقدرون على تحقيق هدف الرسالة و هو إصلاح ما فسد من الناس ، و لقد رأينا في الآيات السابقة كيف ان الانسان بطبعه جاهل و عجول لو لا التربية الايمانية اذا على الرسول الاستقامة في اصلاحه حتى يخرج من هذه النفسية الجاهلية.

[فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك و ضائق به صدرك]

كلا عليك ان تبقى صابرا امام ضغط اهوائهم و دعاياتهم التي منها.

[أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك]

انهم لا ينتظرون قليلا حتى يروا ان تطبيق الرسالة كفيل بأن يفتح لهم ابواب الـــــــرحمة ، و اكثر بكثير من مجرد كنز ينزل على الرسول ، و أن انتصارات الرسول (ص) اكبر من مجرد نزول ملك معه ، لان (روح

القدس) و هو اعظم ملك يهبط معه ، و لا يفقهون هذه الحقيقة.

ان عملهم و ليس اي شيء اخر يضمن مستقبلهم ، و انما دور الرسول هو التذكرة و التوجيه.

[إنما أنت نذير و الله على كل شيء و كيل]

فهو الذي يوفر الحياة السعيدة بقدرته لمن يعمل بالرسالة ، و يسلبها ممن يكفر بها.

فأتوا بعشر سور مثله

[13]و لا يسع الجاهليون الا انكار الرسالة و اتهام الرسول (ص) بانه قد افتراه كذبا على الله تعالى ، و القرآن يتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن افتراء على الله كذبا إن كانوا صادقين.

[أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و أدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين][١٤] و لكنهم فاشلون حتما في ذلك لأن القرآن جاء بعلم الله تعالى المحيط بكل شيء ، فيه قيم خالصة من شرك الجاهلية و من عصبياتهم ، و قيم إنسانية سامية تتجاوز اطار القبيلة و العشيرة و القوم و الأرض و اللغة و الدم ، و سائر ما ابتلى به البشر منذ هبوطهإلى الأرض و حتى اليوم ، و كل الكتاب و الشعراء و المفكرين كانوا خاضعين لهذه القيم الا الرسل و المخلصون من المؤمنين ، كما ان القرآن حمل الى الناس برامج لكل حقول الحياة مما عجزت ادمغة الفلاسفة و فقهاء القانون و السياسة و الاقتصاد عن ان تبلغ جزء منهفي مطابقتها لأنظمة الحياة ، و سنن الطبيعة ، و في تناسقها و متانة علاقاتها بطبيعة البشر ، و دوافعه و دواعيه و نقاط ضعفه و .. و .. فهل يقدر البشر على مثله ؟!

[فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله]و ان الاله الذي يجب ان يطاع ، و تتبع مناهجه و رسالاته هو الله تعالى و على البشر ان يسلم نفسه لله.

[و أن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون]

الأنسان بين الدنيا و الآخرة

هدى من الآيات

من الشبهات التي تحوم حول قلوب الكفار ضد الرسالة ، ما يرونه من تقدم ظاهر في معيشتهم في الدنيا ، و الله يذكرنا في هذا الدرس بأن للعمل جزاءه ، فمن عمل للآخرة فان جزاءه يوفر اليه هناك و في الدنيا يعطي له نصيب منه ، و من عمل للدنيا فأن كل جزائه يعطى لهفي الدنيا دون ان يبخس منه شيء ، و لكن ذلك يعني في المقابل أن جزاءهم في الآخرة هو النار ، لأن ما عملوه في الدنيا من خير قد احبط و بطل ، فلم يبق الا اعمالهم السيئة و مسؤولياتهم التي لم يقوموا بها.

بينات من الآيات

ربنا آتنا في الدنيا و ماله في الآخرة من خلاق

[15]كثيرا ما يخدع البسطاء من الناس ما يرونه من ازدهار و تقدم للكفار و المنافقين سواء لمجتمعاتهم أو لأفرادهم ، و يزعمون أنه لو كانت الرسالة صحيحة و انها على حق ، و أعداؤها على باطل اذا لم يتقدم أعداء الرسالة في الدنيا ؟ و ينسى

هذا الفريق الساذج من الناس حقيقتين:

الأولى :ان دار الدنيا دار ابتلاء و اختبار ، و ان الله لم يقدر الجزاء العاجل فيها لحكمة ابتلاء الناس بما يفعلون ، و اختبار وعيهم و عقلهم و ارادتهم و حسن او سوء اختيارهم ، و لو عجل ربنا في عقاب الكافرين او ثواب المؤمنين ، لانعدمت فرصة ابتلائهم ،و كما جاء في الحديث عن الامام علي (ع) في موضوع الانبياء انه.

"لو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام ، و عزة لا تضام ، و ملك تمد نحوه أعناق الرجال ، و تشد إليه عقد

الرحال لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار و أبعد لهم في الاستكبار ، و لأمنوا عن رهبة قاهرة لهم ، أو رغبة مائلة بهم ، فكانت النيات مشتركة ، و الحسنات مقتسمة (1) "

الحقيقة الثانية : ان طبيعة عمل الكفار صلاح ظاهره و فساد باطنه ، فهو كشجرة مسوسة او بناء أنيق يكاد يتهدم بسبب تزلزل قواعده . و كل جزاء يرتبط بظاهـر العمل ، و صورته الخارجية ، فانه يعجل لهم دون نقيصة ، بينما يبقى الجزاء الحقيقي الباقي لأولئك الذينيصلحون واقع عملهم.

فالشجرة المسوسة تعطيك البهجة و الظل ، و لكنها لا تعطيك الثمر ، و هكذا العمل الذي يفقد عنصرالأيمان و الصدق مثل الذي يرائي الناس في أعماله ، يكسب بعض الشهرة عندهم ، و لكن الصلاة التي يقيمها رياء لا تعرج بنفسه في سماء الفضيلة و التقوى ، و كذلك المجتمع الكافر الـذي يعمل من أجل الرفاه فقط فان حياته المادية العاجلة سوف تتحسـن ظاهرا ، و لفتـــرة محـــدودة اذ ان الذنوب و المعاصي ، و ظلم بعضهم لبعض ، و ظلمهم لسائر المجتمعات كـل ذلك يصبح كالسوسة التي تنخر في أعماقهـــــم(١) نهج البلاغة خ ١٩٢ ص ٢٩٢

حتى ينهار بناؤهم الأنيق ، و يكون مصيرهم مصير عاد و ثمود و أصحاب الرس و أصحاب الايكة ، الذين انهارت حضاراتهم التي اغتروا بها ، و زعموا انها خالدة.

[من كان يريد الحياة الدنيا و زينتهـا نوف إليهـم أعمالهم فيها و هم فيهـا لا يبخسون][١٦ [و لكن مثل هذا الفريق مثل الشاب الذي يستنفذ كل طاقاته في ايام صحته و فراغه و قوته ، فاذا حل بساحة الشيب لم يجد شيئا ينفعه .. امواله صرفت ، طاقاته استنفذت ، و امكاناته أنفقت ، كذلك المجتمع الذي يفكر في لحظته لا يفكر في القيم و لا في المجتمعات الثاني ، و لا في مستقبله انه لا حظ له في الآخرة ، بل إن اعماله السابقة تبطل لأنها لم تكن قائمة منذ البدء على اساس ثابت.

]أولئك الذين ليس لهم في الاخرة إلا النار و حبط ما صنعوا فيها و بطل ما كانوا يعملون]لقد بنوا حضارتهم على قاعدة الأعتداء و الظلم و الفساد ، فهي على شفا جـرف هار . تنهار بهم في نار جهنم.

الخسارة عاقبة الكفار

هدى من الآيات

هناك فريقان في الناس لو قارنا بينهما لعرفنا إلى أي واحـــد منهمـــا ينبغـــي الانتمـــاء.

أولا :المؤمنون الذين هم على طريق هدى بينة لهم ربهم ، و يقودهم شاهد من الله هو الرسول و الأمام ، و هم على خط تاريخي ذي تجربة غنية ، حيث موسى الشاهد جاء بكتاب بين إمام و رحمة.

ثانيا : الكافرون الذين تشتتوا أحزابا مختلفين ، و النار موعدهم و مصيرهم فهل يبقى شك في ان الحق هو الذي يؤمن به المؤمنون ، بيد أن أكثر الناس لا يؤمنون!

و بينما المؤمنون هم على بينة من ربهم ، ترى الكافرين يفترون على الله الكذب ظلما لأنفسهـم ، و غـــدا يعرضون على ربهم ليشهد عليهم الشهداء و يميزوهم ، و يقولوا : هؤلاء الذين كذبـــوا على ربهـــــم ، و هؤلاء هـــــم الظالمون ، الا لعنة الله علىالظالمين.

و من صفاتهم أنهم يصدون عـــن سبيـــل الله ، و يريدونه منحرفـة مثـل مجتمعهم الزائغ و نفوسهم المعقدة ، و يكفرون بـــالاخرة ، و لكن اين يهربون ، و هل يقدرون علـــى الخلاص من عذاب الله ، و هل هنـــاك من ينصرهم و يمنع عنهم جزاء ربهم ؟ كلا .. بل يضاعف لهم العذاب بقدر قدراتهم السمعية و البصرية التي لم يستفيدوا منها للهداية ، و الواقع أنهم خسروا انفسهم ، و ما خولهم ربهم من طاقات و امكانات ، و اما مفترياتهم و أكاذيبهم فقد تبخرت و لابد بالتالي ان يكونوا هم الأخسرين في يوم القيامة لأنهم لا شيء يملكون. اللهم الا جبالا من الذنوب!

بينات من الآيات

و منهم من يؤمن به و منهم من يكفر

[17]اي الناس افضل حياة ، و ارقى هدى النموذج الايماني أم الكافر ؟

قبل ان تختار طريقا انظر الى مجمل حياة الذين سلكوه ، فهناك المؤمن الذي يسير في طريق واضح المعالم بين الجوانب ، اقام الله الحجة عليه ، فهو واثـق من طريقة ، عالم به..

]أفمن كان على بينة من ربه [

و هناك شاهد قد اكتملت شخصيته الايمانية بوحي الله و هو الرسول او الامـام يتبعه ، يشهد له بصحة طريقه ، و يديره و يوجهه حتى لايضل و لا يغوى ، و هذا الشاهد هو من عند الله ، مبارك بالله ، مؤيد بنصره ، مسدد بنوره.

[ويتلوه شاهد منه]

و أكثر من هذا ان هذا الخط قديم قدم الأنسان و قد جربته البشرية عبر العصور ،وكان أروع مثال للفلاح .

]و من قبله كتاب موسى إماما و رحمة[

فكتاب موسى كما القرآن كان بينة و طريقا سويا لا عوج فيه لمن اراد ان يسير عليه ، و موسى شخصيا كان ذلك الشاهد الألهي على قومه السائرين على نهج الرسالة ، و بالتالي كان كتاب موسى إماما و رحمة ، فهو من جهة هدى و استقامة و علم و عرفان و من جهة ثانية حياةو سعادة و رفاه.

[أولئك يؤمنون به]

فأولئك الذين هم على بينة من الله يؤمنون بالله و كتابه ، و هذا هو نموذجهم ، و هناك نموذج اخر هو نموذج الاحزاب المتفرقين في الدنيا المجتمعين في النار.

[و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده]

فامامك احد النموذجين ، و عليك ان تتجاوز الشك بعقلك و ارادتك و تـؤمن به لانه الحق.

[فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك و لكن أكثر الناس لا يؤمنون]و عليك الا تعبأ بهذه الأكثرية الضالة التي لا تؤمن بالله ، بل تبعد الشك عن نفسك و تؤمن به وتثق بعقلك.

[18]الله هو ذي العرش الذي يبتغي كل الناس السبيل اليه و الاتصال بهـــداه ، و لكــن بعض الناس يسيرون في الطريق الصحيح فيبلغون مرادهم ، و البعض تضلهـــــم الاهواء ، فيفترون على الله الكذب ، و يدعون كذبا انهم على سبيل الله ، و لكن كم سيكـــون ذنبهـــــؤلاء كبيـرا و ظلمهم لانفسهم و للناس عظيما . اذ انهم يحرمون الناسو انفسهم من نور هدى ربهم ؟!

[و من أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم و يقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين]

صفات ادعياء الدين

[19]ما هو الاثر السلبي للتشريع البشري الخاطئ و للثقافة المادية الكافرة ، او للافتراء على الله ؟

إنه يتلخص في ثلاثة:

أولا : منع الناس عن السير في سبيل الله الذي يهدي اليه العقل و الفطرة ، و يذكر به الوحي.

[الذين يصدون عن سبيل الله]

فلو لا الثقافات المنحرفة ، التي ينسبها ادعياء الدين الى الله زورا و بهتانا ، اذا لأهتدى الناس بالتذكرة.

ثانيا : طرح سبل منحرفة للناس و الأدعاء بأنها هي سبيل الله.

]و يبغونها عوجا[

ثالثا : تحديد نظر الانسان في الدنيا ، و قتل طموحه الروحي ، و تطلعه الفطري الى الآخرة.

[و هم بالآخرة هم كافرون]

و يبدو ان هذه الصفات الثلاث هي ايضا سمات ادعياء الدين الظاهرة التي يعرفون بها ، فهــؤلاء يمنعون الخير ، و يجعلون من انفسهم حجر عثرة عن تقدم الناس و رفاههم ، ويعقدون الأمور ، ويبغضون الرسالة الى الناس ، كما انهم لا يذكرون الناس جديا باليوم الآخر.

[20]و لكن اين يهرب هؤلاء الخونة بدين الله و هل يقدرون الخروج عن سلطـــان الله ؟ و هل هناك من ينصرهم من دون الله ؟ كلا .. بل ان عذابهم مضاعف بسبب عملهم و قولهم الفاسد الذي انحرف به الناس.

[أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض]

علماء السوء و ادعياء الدين يحتالون على الدين و كأنهم يفرون من احكام الله ، و من فطرتهم و علمهم ، فهل يقدرون على الهرب ايضا من عذاب الله ؟!

]و ما كان لهم من دون الله من أولياء[

ان هؤلاء يغيرون الدين طمعا في استمالة الناس ، و جمع المزيج من الأتباع ، و لكن هل ينفعهم هؤلاء شيئا ؟ كلا بل ان اغواءهم للناس يسبب تحمل اوزارهم مضافة الى اوزار الذين اضلوهم.

[يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع و ما كانوا يبصرون]لقد فسرت هذه الكلمة الاخيرة على وجهين:

احدهما :ان معنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون ، و بما كانـــوا يستطيعون الابصار فلا يبصرون عنادا ، و بتعبير آخر : لأنهم كانوا قادرين على السمــع و الابصار بما وهب الله لهم من نعمة العلـم و القــرب مــنمصادر الهداية فلم ينتفعوا بهما.

و الثاني : انه لاستثـقالهم استماع ايات الله ، و كراهتهم تذكرها و تفهمهما . جروا مجرى من لا يستطيع السمع و الابصار.

[21]و هل ربح هؤلاء شيئا ، و هل يسمى الذين يخسرون مستقبلهم و مجمل فرصهم رابحين حتى لو اكتسبوا بضع دراهم او مجموعة انصار ؟!

[أولئك الذين خسروا أنفسهم و ضل عنهم ما كانوا يفترون]من الاراجيف التي جمعوا حولها الناس غرورا ، فلا بقيت تلك الافكار الباطلة التي زينت لهم و لا اولئك المغرورين بها.

[22]انهم لابد أن يكونوا الأخسر من الناس لأنهم لم ينتفعوا بمواهبهم ، و عوضا من ان يكونوا في مقام الانبياء و الصديقين بعلمهم و هداهم ، و يؤجرون مرتين . مرة عملهم الصالح ، و مرة بما اهتدى الناس بهم . اصبحوا يعذبون عذابا مضاعفا بعملهم الفاسد ، و باضلالهم الناس " ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة و من اوزار الذين يضلــونهم بغير علم " (١)[لا جرم أنهم في الاخرة هم الأخسرون[

اصل الجرم القطع ، و لا جرم تقديره لا قطع قاطع عن ذا ، فهذه هي نهايتهم التي اختاروها لانفسهم.

و كلمة أخيرة : - حين نقارن هذه الآيات بالآية الثالثة عشرة نستفيد مقياســـا(١) النحل / ٢٥

مبينا للتمييز بين صاحب الرسالة الحق الذي لا يتنازل قيد انملة عن رسالته برغم ضيق صدره ، و ازدياد الضغوط عليه ، و بين الذي يضل الناس عن الحق طمعا في ولائهم او رغبة في هدايا السلاطين.

أنؤمن لك و اتبعك الأرذلون

هدى من الآيات

يبدو ان السياق القرآني يشرع منذ هذا الدرس في ســـــرد قصص الرســـل فـــي انذارهم الشديد لقومهم ، الذين كانوا يرفضون قبول الرسالة فيـــأخذهم الله بعذاب شديد ، و ذلك لعـــدة اهداف منها تذكرة الناس بأن هذا القرآن واحد من النذر ، و أن من يعـــرض عنـــه يصاب بمـــا اصـــاب اولئك ، (و تشير الى ذلك الآية الاولى من هذا الدرس. (

و منها تثبيت قلب الرسول و المؤمنين برسالته لكي يستقيموا كما أمروا ، و لا يركنوا الى الظالمين . جاء في الآية العشرين بعد المأة من هذه السورة : " و كلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك و جاءك في هذه الحق و موعظة و ذكرى للمؤمنين. "

ان عاقبـــة المؤمنين الصالحين الذين اطمأنوا الى ربهم هي الجنة خالدين فيها ، لأنهـم اصحاب سمع و ابصار ، بينما الكفار كالأعمى و الأصم لا يهتدون سبيلا.

و قصة نوح مع قومه تكشف هذا الفرق بين الفريقين .. المؤمنين و الكفار . حين ارسله الله إلى قومه لينذرهم لا يعبدوا الا الله ، و حذرهم انه في غير هذه فسوف ينزل عليهم عذاب يوم أليم، فقال الملأ الذين كفروا من قومه : أنك واحد مثلنا ، و ان الذين اتبعوك هـــم من الطبقات السفلى من مجتمعنا ، و انه لا فضل لكم بالرسالة بل نظنكم كاذبين ، فحذرهم نوح (ع) مرة اخرى قائلا : ماذا لو كنت صادقا ، و ان عندي بينة من ربي و أنا مهتد بها الى الصراط السوي ، و آتاني رحمة من عنده ، بينما انتم لا ترون الطريق السوي ، او يمكنان الزمكم به و انتم له كارهون ؟!

و في الدروس القادمة يتلو علينا القرآن سائر فصول القصة.

بينات من الآيات

هل يستوي الفريقان ؟

[23]حين يكون الايمان مستقرا في القلب ، مستويا على عرش النفس ، فأن المؤمن يشعر بالأطمئنان و السكينة و الرضا ، فلا يعمل الا من أجل الله ، و بهدف تحقيق مرضاته سبحانه ، و جزاءه عند ربه الخلود في جنات الله الواسعة.

[إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات و أخبتوا إلى ربهم]الأخبات : الطمأنينة ، و أصله الاستواء من الخبت ، و هو الأرض المستوية الواسعة فكأن الاخبات خشوع مستمر على استواء فيه.

[أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون]

[24]الفريقان المؤمن المخبت و الكافر ، نموذجان مختلفان يعرف واقعهما بالمقارنة بينهما فهذا كما البصير السميع الذي يسير وفق عقله و هدى الوحي ، بينما يتخبط الثاني كما الاعمى و الاصم.

[مثل الفريقين كالأعمى و الأصم و البصير و السميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون] و المسألة ليست بحاجة الى المزيد من البحث ، بل هي حقيقة واضحة معروفة لمن يلتفت اليها.

شيخ الانبياء و قومه

[25]و يضرب القرآن أمثالا عديدة يقارن فيها بين الفريقين ، و عاقبة كل واحد منهما ، كما يبين من خلال هذه الأمثال - حقائق أخرى تمت التذكرة بها في بداية السورة. -

[و لقد أرسلنا نوحا الى قومه إني لكم نذير مبين]

الملاحظ بالتدبر في هذه الآية ان نوحا ارسل الى قوم كان منهم ، و كان ذلك ابلغ في بيان الرسالة لهم ، و ابعد عن العصبية ، كما أن أهم بنود دعوته كان الانذار ، و هو ابلغ أثرا في النفوس باعتبارها قد فطرت على الدفاع عن الذات ، و ابعاد كل مكروه محتمل ، والانسان مفطور على الدفاع عن ذاته اكثر مما هو مفطور على جلب المنفعة لها.

[26]و خلاصة دعوة نوح و هدف رسالته كانت عبادة الله وحده ، و نبذ الشركاء ، و حين ينبذ الشركاء تسقط السلطة السياسية ، و المنهاج الاقتصادي و الثقافي و السلطة الاجتماعية و كل ما يقوم على أساس عبادة الأوثان و الشركاء.

[أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم]ان مجرد الخوف من ذلك اليوم الذي ينشر فيه العذاب حتى يصبح اليوم ذاته أليما . حيث ان كل لحظاته تصبح ميعادا للعذاب ، اقول : ان مجرد الخوف من ذلكاليوم يكفي البشر دافعا نحو الايمان بحثا عن الخلاص.

[27]اما جواب قومه فقد كان متوغلا في التحجر و المادية والطبقية.

فأولا :زعموا بأن صاحب الرسالة يجب ان يكون من غير البشر ، و كأن البشر هو المخلوق العاجز عن حمل الرسالة ، و هذا نوع سخيف من التحجر الجاهلي.

و ثانيا : قاسوا الرسالة بمن يحملها أو من يبادر بالايمان بها . ولم ينظروا اليها ذاتها باعتبارها قيم فاضلة ، و دعوة الى العدالة و الهدى ، و هذا نوع من المادية و تشييء القيم.

ثالثا : نظروا الى تابعي الرسالة من المستضعفين نظرة ازدراء بسبب تكبرهم و طبقيتهم.

[فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا و ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي [الملأ هم الاشراف و علية القوم ، و لأنهم كفروا بالرسالة شأنهم شأن اغلب الذين هم من طبقتهم كذلك يعتبرون فاسدين ، و كان من الصعب عليهم الخضوع لمن هو مثلهم ، دليلا على انحطاط نفوسهم ، و انعدام الثقة فيها ، فنعتوا المؤمنين بأنهم من الطبقة الدنيا ، و أنه من ينظر اليهم يعرف منهم هذا النعت (بادي الرأي. (

[و ما نرى لكم علينا من فضل]

غافلين عن ان الرسالة ذاتها فضل كبير.

[بل نظنكم كاذبين]

و كان هذا الفريق يتبعون الخيال و الظنون ، ويرمون الأفكار الجديدة التي تخالف مصالحهم بأنها كذب . انطلاقا من عنجهيتهم و تكبرهم.

[28]و اجاب نوح (ع) على شبهاتهم:

أولا : بأنه على بينة من ربه ، فهو بالرغم من بشريته فأنه يملك ما لا يملكون و هو الهدى ، و الحجة من ربه عليه .

ثانيا :ان المال الذي يفقده يعوض بما يؤتيه الله من رحمته الواسعة ، التي هي اهم من المال . اذ ان الثروة لا تحل كل المشاكل بعكس رحمة الله التي تقضي على اكثر الصعاب.

و ثالثا : ان ظنهم الفاسد بكذبه (ع) ، آت من عماهم ، و عدم تفكرهم الجدي ، و في هذه الحالة لا يجبرهم نوح على الرسالة ، و هذا الكلام قد يكون ردا على قولهم:

[و ما نرى لكم علينا من فضل]

حيث كانوا يزعمون : ان الرسول كالملك ، يجب ان يملك قوة مادية قاهرة تفرض على الناس خطا معينا ، بينما الرسول جاء من أجل الهداية التي لا تأتي من دون الأختيار و الحرية.

[قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي و اتاني رحمة من عنـــده فعميت عليكـــم]اي خفيت هذه البينة ، و ربما البينة هي الصراط السوي أو الحجة الواضحة.

[أنلزمكموها و أنتم لها كارهون]

و ما أنا بطارد الذين آمنوا

هدى من الآيات

قـــوم نوح كما المستكبرين في كل عصر ردوا رسالة الله بسبب الظنون و الشبهات ، و شرع نوح في هذا الدرس ببيان واقع الرسالة و رد الشبهات و الظنون الباطلة ، فلقد زعم اولئك الجاهلون بأن نوحا يريد أن يتسلط عليهم ، أو يغنى على حسابهم ، و أزال نوح عليه السلام ، تخوفهم و قال : انه لا يريد منهم مالا ، و لكنه في الوقت ذاته لا يجعل المال مقياسا لتقييم الناس ، فيطرد المؤمنين لانهم فقراء ، بل يقول : ان حسابهم على الله ، و انهم سيلاقون ربهم ، أما قوم نوح فقد كانوا يجهلون ، و يتخذون القيم الزائفة مقياسا لتقسيمالناس ، و هذا تقسيم باطل لا يرضى به الله ، و الذي يطرد المؤمنين اعتمادا على مثل هذه القيم ، بعيد عن رحمة الله ، و غير منصور أيضا.

ثم رد نوح (ع) شبهة اخرى حيث بين أنه ليس برجل خارق يملك خزائن الله ، أو يعلم الغيب ، و أنه خلق من نور كالملائكة.

ثم عاد و أكد عليه السلام على انه لن يطرد المؤمنين الذين يقلل من شأنهم قومه لان الله أعلم بما في أنفسهم ، فان كانوا صادقين وافاهم أجلهم و أعطاهم الخير ، فكيف يطردهم نوح فيصبح ظالما لهم.

بينات من الآيات

الرسول و أولياء الرسالة

[29]لأن الملأ من قوم نوح ، و كذلك الملأ المستكبرين من كل قوم يستغلون الناس ، و يستثمـــرون طاقاتهم ، فلا يسعهم النظر الى الاحداث إلا من خلال واقعهم الطبقي ، لذلك يتهمون الرسل بأنهم إنما يريدون الثروة من وراء دعوتهم ، وينفي الرسل بكل قوة هذه التهمة ليفصلوا بين دعوتهم الاصلاحية و بين دعوات الملأ التي تهدف المزيد من استغلال المستضعفين.

[و يا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله]فنوح - شأنه شأن كل البشر -يطلب أجرا و يعمل لهدف ، و لكنه لا يطلبه من الناس بل من الله ، و بذلك أثبت نوح - مرة اخرى - الطابع الغيبي لرسالته.

و لأن نوحا (ع) لا يريد الانتفاع بعلمه ليصبح رقما جديدا في قائمة الملأ يتقاسم معهم المكاسب الآتية من ظلم الناس و استغلالهم ، كما كان يفعل علماء السوء . لذلك فهو يقف الى جانب المظلومين و يقول بصراحتة:

[و ما أنا بطارد الذين آمنوا]

و قد يكون للطبقة السفلى التي تهرع الى الايمان بعض السلبيـــات المترسبة فيهم بسبب الجاهلية ، أو بسبب تعرضهم للظلم ، فرسالة السماء ليست مســـؤولة عــن سلبياتهم ، و عدم طردهم لا يعني أبدا أن رسول الله يزكيهم تماما ، بل إن حسابهم عند الله.

[إنهم ملاقوا ربهم]

بيد أن الملأ من قوم نوح لم يزالوا على ضلالتهم التي تقسم الناس على أساس المال أو الدم.

]و لكني أراكم قوما تجهلون [

[30]الطبقة الدنيا التي بادرت بالايمان دخلت حصن الله ، و الله يحمي الذين يتحصنون به ، و لو أراد أحد طردهم ، و أراد الله نصرهم فان ارادة الله هي الغالبة ، و لا يملك من يطردهم قوة يرد بها غضب الله عليه .

[و يا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم]

و في هذه الآية دليل على أن احتفاظ رسول الله بالمؤمنين من الطبقات الدنيا ليست بهدف الانتصار بهم أو تكثير العدد حول نفسه ، بل لأنهم مؤمنون ، و الله يحـــب المؤمنين.

[أفلا تذكرون]

فالمسألة بحاجة الى تذكرة ، و لفت نظر حتى يعرف الانسان أن الأمور بيد الله ، و أن ربنا لا ينظر الى الغنى و الجاه بل الى الايمان و العمل الصالح.

إني بشر مثلكم:

[31]و عاد نوح عليه السلام يبين أبعاد رسالته التي هي أيضا أبعاد رسالة كل رسول و كل مصلح يتبع خط الرسل.

فأولا :إن الرسول يدعو الناس الى الله و الى الحق الذي تعرفه فطرتهم ، و هــذا هــورأسماله ، ولا يدعوهم الى نفسه باعتباره صاحب ثروة طائلة.

[و لا أقول لكم عندي خزائن الله]

بل خزائن الله موجودة في ذات الانسان ، و في الأرض التي أعطى الله البشر القدرة على تسخيرها بالايمان و العمل الصالح.

فالفكرة المتخلفة التي تنتظر من صاحب الرسالة (تفجير الأرض بالينابيع ، و استخراج كنوز الحياة ، و تقديمها لهم بل عمل) انها فكرة خاطئة.

ثانيا : أن الرسول لا يدعي الغيب إلا بقدر ما يوحي إليه ربه عبر رسالتـــه ، و لذلك فهو لا يعد الناس بالرفاه ، و انه مثلا يأخذ بأيديهم و يدلهــم علــى معــادن الذهب و الفضة.

]و لا أعلم الغيب[

ثالثا : انه لا يدعي امتلاكه لقوة قاهرة ، باعتباره من عنصر الملائكة.

[و لا أقول إني ملك]

رابعا : انه لا يتعالى على الناس.

[و لا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا]بل ان الخير و الشر هما من الانسان نفسه ، من عمله النابع عن نية صالحة ، و لا يعرف ذلك إلا الله.

[الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين]

و ما أنتم بمعجزين

هدى من الآيات

و ظل نوح عليه السلام يسعى جاهدا حتى أتعب قومه ، و قالوا : (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) و طالبه قومه بانهاء مرحلة الكلام و البدء بتنفيذ ما يوعدهم به . غافلين عن أن نوح ليس إلا رسولا و مبلغا عن ربه ، و حين يشاء الله عذابهم لا يقدرون على الفـرار من حكومته و سلطانه ، و مهمة التبليغ التي يقوم بها نوح تختلف عن الهداية . فالله هو الهادي المضل ، و اذا شاء إبقاء قوم على الضلالة بسبب كفرهم بنعمة الرسالة ، فان الرسول لا يقدر على هدايتهم ، و هكذا فان رسالات الله ليست من صنع الانبياء و انما هي منوحي الله ، و اذا كان الرسول هو الذي افترى الرسالة كذبا على الله فانه يتحمل مسؤولية عمله ، أما إذا كانت صادقة فهو لا يتحمل مسؤولية كفر قومه به بل هو بريء منهم.

أوحـــى الله الى نوح أن مدة تبليغه قد انتهت . اذ أن قومه لن يؤمنوا أكثر من هذا بعد اليـوم ، فلا يحزن بما يفعلـون ، و بدأت مرحلة الاعداد ليوم العذاب . اذ أمر اللهرسوله بصنع الفلك و لا يخاطب ربه حول الظالمين من قومه ، فيحاول الشفاعة لهم لانهم مغرقون لا محالة ، و كان نوح عليه السلام يصنع الفلك ، ويمر عليه المستكبرون من قومه فيسخرون منه ، ولكنه كان يقول لهم : لنا يوم نسخر منكم كما تسخرون بنا اليوم ، و في ذلك اليوم ستعرفون : ان عذاب الخزي سيكون من نصيبكم.

بينات من الآيات

لن يؤمن من قومك إلا من آمن

[32]من أبرز الصفات الرسالية التي كان الانبياء العظام يتمتعون بها هي الاستقامة و الاستمرار في الدعوة دون كلل.

فنوح عليه السلام أتعب قومه من كثرة جداله معهم . حتى طالبوه بما وعـدهم من العذاب ، و زعموا ان نزول العذاب بهم أفضل من هذه الدعوة التي تلاحقهم في كل وقت و في كل مكان.

]قالوا يا نوح قد جادلتنـــا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين]لقد دعا نوح قومه ليلا و نهارا . سرا و جهـــارا ، و لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدق مسامعهم بكلماته البليغة ، و انذاره الشديد حتى سئموا منه و لم يسأم و هكذا ينبغي ان يكون الرساليون على مر العصور الاستقامـــة على الدعوة أنى كانت الفترة طويلة.

[33]و لم يترك نوح كلامهم الآخر من دون جواب . بل نبههم مرة اخرى الى أن الله و ليس هو يأتيهم بالعذاب ، و انهم لا يقدرون آنئذ على الفرار.

]قال إنما يأتيكم به الله إن شاء و ما أنتم بمعجزين]و هذه سمة ثانية و هامة في رسالات السماء حيث أن الأنبياء) عليهم السلام) لا يدعون لانفسهم شيئا . و يذكرون الناس بان دورهم فقط دور المبلغ ، و أن الأمر بيـــد الله.

[34]و تأكيدا لهذه الحقيقة ذكر نوح قومه بأن النصيحة لا تنفع إلا بإذن الله . اذ الهدى و الضلالة انما هي بأمر الله و إذنه ، و اذا كفر أحد بنعمة العقل . فان ربنا قد يسلبها منه فلا يستفيد من النصيحة.

]و لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم و إليه ترجعون]في

المفردات : الغي : جهل من اعتقاد فاسد و ذلك أن الجهل قد يكون في الانسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا ، وقد يكون في اعتقاد شيء فاسد ، و هذا النحو الثاني يقال له : غي ، و قد يكون هذا الغي يشير الى الله تعالى قد يسلب من البشر نعمة العقل.
فيعتقد بالباطل حقا.

[35]هكذا رسالات الله جميعا ، التي انزلت على نوح و التي انزلت على محمد (ص) سبيلها واحد ، فهي من الله . و الرسول يعلم مدى الخيانة التي يرتكبها من يفتري على الله ، و لكن جريمة من لا يهتدي بالرسالة ليست بسيطة هي الاخرى ، و ليس من السهل ان يسترسل الفرد و لا يستمع لرسول الرسالة بمجرد احتمال كذبـــه لانها جريمة كبيرة ايضا.

]أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي و أنا بريء مما تجرمون]جاء في تفسير مجمع البيان : " قيل انه يعني بذلك محمدا)ص) . و المراد أيؤمـــن كفار (قوم) محمد بما أخبرهم به محمد (ص) من نبأ قوم نوح ، أم يقولون : افتراه محمدمن تلقاء نفسه ، و قيل : يعني نوحا ، و انه يقول على الله الكذب " . (١)بيد انه يمكن ان يفسر القرآن على أكثر من وجه فيكون المراد ليس فقط رسالة محمد (ص) و انما رسالة نوح أيضا.

[36]و لم يترك نوح عليه السلام الجدال مع قومه الا بعد أن اوحى اليه ربه انه يستحيل ايمان قومه بعد الآن ، و ان عليه الا يحزن عليهم ، و الا يعيش حالة البؤس بسبب أفعالهم.

]و أوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانـــوا يفعلون]ان رسل الله عليهم السلام يتمحصون حول الله ، و يصبحون شعلة من الحركة و الاندفاع من أجل تبليغ رسالة الله . حتى يكادوا يهلكون أنفسهم حزنا بسبب عدم إيمان الناس ، و جاء في القرآن : " طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " (٢) و جاء : " فلعلك باخع نفسك على آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا " (٣) و هذا نوح عليه السلام يبلغ حالة البؤس و الاستكانة بسبب ما يفعله ، و لكن الله ينهاه عــن ذلك . و يأمره بمتابعة دربـــه.

انهم مغرقون
[37]و تبدأ رحلة الجزاء التي بدأت بصنع السفينة.

(1)المجمع ج ٦،٥ ص 158

(2)طه / ١

(3)الكهف / ٦

]و اصنع الفلك بأعيننا و وحينا[

كان نوح عليه السلام لا يقوم بخطوة الا حسب المنهاج الذي رسمه له ربه . تحت مظلة واقية من حماية ربه.

]و لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون[

ولم تزل في قلب نوح بقية أمل تدعوه الى التضرع الى الله ليمنع عن قومه العذاب في آخر لحظة . و لكن على الرسول - بعد أن ييأس من إيمان قومه - ألا يشفق عليهم لانهم يستحقون العذاب.

[38]و أخذ نوح يصنع الفلك في الفلاة القاحلة استجابة لامر الله و إيمانا بأن وعد الله حق ، و كان ذلك أبسط دليل على انه لا يتبع هواه ، و لا يقول على الله كذبا . لانه لو كان كذلك فما الذي دعاه الى صنع الفلك في الصحراء ؟!

ان أنبياء الله عليهم السلام يقومون بأعمال يحسبها الناس مـــن حولها نوعا من الجنون ، لانها لا تتناسب معلومات و أفكار العصر ، و لا مع ما يجـــري حولهم من أحداث أو يتوقع من احتمالات . هذا بذاته دليل واضح على انهم يتبعون الوحي ، و قد لا يعرف النبي لماذا يأمر بعمل ما للشهادة على مدى خلوصهم في الله ، و تجردهم لرسالته الغيبية.

]و يصنع الفلك و كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه]إن استهزاء الناس بنوح عليه السلام شاهد على انه كان رسولا لا يتبع المألوف و الشائع في ظروفه ، بل كان يتحداها بسبب إيمانه بالغيب.

]قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون[

[39]و انذرهم نوح بالعاقبة السوأى التي تنتظرهم.

[فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه]

و يفضحه في الدنيا عبر التاريخ.

[و يحل عليه عذاب مقيم]
دائم في الآخرة.

بعدا للقوم الظالمين
هدى من الآيات
بقي نوح ينتظر أمر الله . مستعدا لتنفيذ واجباته حتى إذا جاء أمر الله ، و تفجر التنور (الذي كان في بيت عجوز حسبما جاء في بعض الأحاديث) أوحى الله الى نوح أن يركب السفينة ، و يحمل فيها معه من كل زوجين اثنين من سائر ما خلق الله ، و يحمل معه أيضا أهلهإلا الكفار منهم و هما زوجته و ابنه اللذان اغرقا أيضا ، و يحمل معه كل المؤمنين الذين كان عددهم قليلا ، و توكل نوح على الله مطمئنا بأن حركة السفينة و وقوفها باذن الله و رعايته ، و تلاحقت أمواج الطوفان كأنها جبال . و صاح نوح بابنه الذي جلس في ناحية ، ودعاه الى الركوب معه و ان يترك الكفار ، و لكنه زعم بان الطوفان فيضان عادي و ان صعود الجبل ينجيه منه ، و لكن نوح حذره من أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم الله ، و قبل ان ينتهي الحوار جاء المـــوج و أغرق ابن نـــوح.

و جاء صوت غيبي يصدر الاوامر الحاسمة للارض بان تبتلع الماء ، و للسماء بأنتكف عن المطر . و غاص الماء و انتهت القضية الحاسمة و وقفت السفينة فوق جبل . و ابعد القوم الظالمون.

بينات من الآيات
و ما آمن معه إلا قليل
[40]ان تلك اللحظة التي كان أبناء الرسالة يتوعدون بها ، و كان الكفار يستهزؤون بها قد حانت اليوم و اصبحت الحقيقة التي انذرت بها الرسالة واقعا لا مهرب منه ، فلقد أصدر ربنا أمره ، و فار الماء من التنور الذي يبقى عادة بعيدا عن الماء ، و امر الله رسولهنوحا بان يحمل معه في السفينة من كل حي زوجين اثنين ، و ان يحمل أهله الذين لم تسبق عليهم كلمة العذاب بسبب كفرهم كزوجته و ابنه ، و ان يحمل معه الذين آمنوا و هم قليلون.

]حتى إذا جاء أمرنا و فار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين و أهلك إلا من سبق عليه القول و من آمن و ما آمن معه إلا قليل]في الحديث المأثور عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

"كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دير قبلة ميمنة مسجد الكوفة قال : قلت فكيف بدأ خروج الماء من ذلك التنور ، قال : نعم ان الله احب ان يري قوم نوح آية آية ، ثم ان الله سبحانه أرسل عليهم المطر يفيض فيضا ، و فاض الفرات فيضا ، و فاضت العيون كلها فيضا فغرقهم الله و انجى نوحا ومن معه في

السفينة ، فقلت : فكم لبث نوح في السفينة حتى نضب الماء فخرجوا منها ؟ فقال : لبث نوح في السفينة سبعة أيام و لياليها " (١)(١) بحار الانوار ج ١١ ص ٣٣٣ رقم ٥٦

[41]و حين ركب نوح و قومه الصالحون السفينة تجلت عندهم روح الايمان الخالص ، و توكلوا على ربهم متذكرين اسمي الغفران و الرحمة - لله - فبمغفرته يحط ذنوبهم و برحمته ينزل عليهم بركاته و فضله.

]و قال اركبوا فيها بسم الله مجراها و مرساها[

فكل شيء في الكون موجود بالله و قائم بالله ، و يتحرك أو ينمو أو ينطق باسم الله . بيد ان هناك حوادث يتجلى فيها التدبير المباشر لله تعالى أكثر ، مثل سفينة نوح التي صنعها بأمر الله دون أن يعرف منذ البدء ابعاد العملية ، و لا يعرف أين تجري السفينة ، و اين تقف و في أية فترة ، انما توكل على الله فيها ، لعلمه انها في اطار تدبير الله و هيمنته المطلقة على الكون.

]إن ربي لغفور رحيم[

بعدا للقوم الظالمين:

[42]و بين لحظة و اخرى تحولت الصحاري الى بحار مواجة ، وتلاطمت الامواج الهائلة و كأنها جبال متحركة ، و لاحظ نوح ابنه واقفا في معزل عن الناس فناداه ليركب معه ، و ربما أخذته شفقة الأبوة أو رحمة النبوة ، و لكن الابن السيء الحظ رفض لانعدام توكله على الله ، و لاعتماده على المادة الجاهلية ، بسبب تعلقه السابق بها ، و قال سوف التجئ الى جبل يحفظني من الطوفان.

[و هي تجري بهم في موج كالجبال و نادى نوح ابنه و كان في معزل يا بني اركب معنا و لا تكن مع الكافرين]كان ابن نوح و يقال ان اسمه كنعان ، من جملة الذين اعتزلوا المعركة الساخنة بين الحق و الباطل ، و اراد الا يتدخل في القضايا الرسالية ، شأنه شأن الكثير من الجبناء الذين لا يملكون شجاعة الاقدام في سبيل الله . بيد ان مثل هؤلاء سوفيكونون مع الكفار لان الايمان وحده هو الذي ينقذ البشر.

] [43]قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم و حال بينهما الموج فكان من المغرقين][٤٤] بين عشية و ضحاها تبدل وجه الارض و هلك القوم الظالمون ، و اذا بهاتف الحق ينادي : (يا أرض ابلعي ماءك (، فعادت مياه الارض التي تفجرت ينابيع الى مخازنها تحت الارض ، و تقشعت السحب التي كانت تسيل ماء بأمر ربها ، فأقلعت عن الانهمار و غاض ماء الارض، و تحولت بقية المياه الى الانهار و البحار كما جاء في حديث ، و انتهت القصة كلها ، حيث استقرت السفينة على أرض مرتفعة .. و خلت الارض من الظالمين الذي لعنوا و طردوا منها بقدرة الجبار.

[و قيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء اقلعي]

أي توقفي قال البعض أن الماء الذي سال من السماء بقي فوق الارض لان الله قال للارض ابلعي ماءك ، و لم يطلق بالقول الماء ، بيد ان هذا القائل ينسى ان كل المياه في الواقع من الارض.

[و غيض الماء]

و هبط الماء أو رسب في الأرض .

[و قضي الأمر و استوت على الجودي]

لقد نفذ أمر الله بهلاك الظالمين ، و نجاة المؤمنين ، و تحقيق الجزاء لكلا الفريقين في عاجل الدنيا.
[و قيل بعدا للقوم الظالمين]

بعدا للقوم الظالمين

هدى من الآيات

بقي نوح ينتظر أمر الله . مستعدا لتنفيذ واجباته حتى إذا جاء أمر الله ، و تفجر التنور (الذي كان في بيت عجوز حسبما جاء في بعض الأحاديث) أوحى الله الى نوح أن يركب السفينة ، و يحمل فيها معه من كل زوجين اثنين من سائر ما خلق الله ، و يحمل معه أيضا أهلهإلا الكفار منهم و هما زوجته و ابنه اللذان اغرقا أيضا ، و يحمل معه كل المؤمنين الذين كان عددهم قليلا ، و توكل نوح على الله مطمئنا بأن حركة السفينة و وقوفها باذن الله و رعايته ، و تلاحقت أمواج الطوفان كأنها جبال . و صاح نوح بابنه الذي جلس في ناحية ، ودعاه الى الركوب معه و ان يترك الكفار ، و لكنه زعم بان الطوفان فيضان عادي و ان صعود الجبل ينجيه منه ، و لكن نوح حذره من أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم الله ، و قبل ان ينتهي الحوار جاء المـــوج و أغرق ابن نـــوح.

و جاء صوت غيبي يصدر الاوامر الحاسمة للارض بان تبتلع الماء ، و للسماء بأنتكف عن المطر . و غاص الماء و انتهت القضية الحاسمة و وقفت السفينة فوق جبل . و ابعد القوم الظالمون.

ن العاقبة للمتقين

هدى من الآيات

و قبل هبوط نوح (ع) الى الأرض تساءل عما انتهى اليه مصير ابنه الغريق و ذلك بسبب جاذبية الشفقة التي اودعها الله في قلب كل أب ، و لو كان الأب شيخ المـرسلين ، تلك الجاذبية التي جعلت سيدنا نوحا يدعو ربه في ابنه و لكن الله وعظه و ذكره بأن المقياس عنده العمل الصالح و ليس الانتساب الى هذا أو ذاك ، و هكذا عرف نوح أن سبب انحراف البشر ليس فقط وجود بيئة فاسدة أو تسلط الظالمين ، اذ قد يكون السبب كامنا في نفسه فدعا ربه بان يغفر له و ان يرحمه فيعصمه من الزيغ و من دون رحمة الله و مغفرته يكون البشر خاسرا . وهكذا الحال بالنسبة الى الذين كانوا مع نوح في السفينة ، و الذين اهبطهم الله الارض ، بسلام و بركات و لكن عوامل الانحراف نزلت معهـــم أيضا ، فبعضهم انجرف مع هذه العوامل و بعضهم صمد أمامها و اعتصم بهدى اللــه.

و في نهاية قصة نوح يذكرنا القرآن بالعبرة فيها و هي الصبر و التقوى فان العاقبةللمتقين و لكنها بحاجة الى الصبر و الاستقامة.

بينات من الآيات

التسليم لقضاء الله

[45]في بعض الاحاديث المروية : " ان الشيطان دخل سفينة نوح متسللا " و الواقع ان الحكمـــة في خلق البشر هي ابتلاؤه ، و وجود الشيطان جزء من معادلة الامتحان ، و انحراف البشر ليس دائما لوجود ضغوط خارجية عليه ، بل ان الهوى و الشهوة ، و الانجذاب الى مظاهر الحياة الذي اودعه الله في كيان كل شخص هو الآخر جزء من معادلة الامتحان و حكمة الحياة.

و هكذا نجد آدم عليه السلام - أبا البشر - أول من ارتكب الخطأ بدافع الملـــك و الخلود ، قبل أن تدركه رحمة الله و تعصمه من الزلل.

و نجد نوحا و قد خرج من محنة الصراع منتصرا على الجبت الداخلي و الطاغوت الخارجي ، و لكنه لا يزال بحاجة الى مغفرة الله و رحمته . يحتاج الى رحمة الله حتى يعصمه من تكرار الزلل ، و هكذا دعا نوح ربه بلباقة ان يفي بوعده بانقاذ أهله ، و لكن الله أجابه بصراحة : انه ليس من أهلك لان رابطتك الحقيقية هي مع الذين يعملون الصالحات ، و هذا الابن لا يملك مقياس العمل الصالح.

]و نادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي و إن وعدك الحـق و أنـت أحكم الحاكمين][٤٦] [قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين]ربما توحي هذه الآية بضرورة الرضا الكامل بالاقدار التي لا يعرف المرءحكمتها ، و التسليم المطلق للأوامر التي لا يفهم البشر فلسفتها.

[47]ان درجــة تسليم الانبياء عليهم السلام لله و لاوامره و أقداره تصل الى القمة ، بسبب تأديب ربنا لرسله الكرام ، و لذلك نجد نوحا عليه السلام يستعين بعصمة ربه لكي لا يسأل ربه ما ليس له به علم ، و لا يقترح عليه ما لا يعلم انه في صالحه و صالح رسالتهو أمته.

]قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم و إلا تغفر لي و ترحمني أكن من الخاسرين [ان مغفرة الله ضرورة حياتية للبشر لتزيل آثار الذنوب و السقطات التي يتعرض لها الانسان أبدا .. فمن دونها تتراكم هذه الآثار حتى ترسي على قلبه ، و تحجب عقله ، كما أن رحمة الله ضرورة اخرى لاستمرار بقاء الانسان نظيفا ، و لكي لا يدعوه الضعف و العجز الى ارتكاب المعاصي ، و قد جاء في الدعاء : " اللهم أغننا بحلالك عن حرامك ، و بطاعتك عن معصيتك ، و بفضلك عمن سواك ... " ، فرحمة الله هي التي تعصم البشر من الذنوب ، لا فرق بين الرسل و غيرهم.

[48]و هبط نوح بأمر الله يحمل معه هديتين الى الأرض السلام و البركة ، و يعني السلام المحافظة على النعمة القائمة و الموجودة فعلا ، و بالتالي رفع الضرر الذي يهدد بزوال النعم ، بينما تعني البركة زيادة النعم و التقدم في حقول الحياة.

]قيل يا نوح اهبط بسلام منا و بركات عليك و على أمم ممن معك [و السلام و البركة هما من الله بسبب رسالته . لذلك يسلبان عمن لا يعرف قيمة الرسالة فينحرف عنها ، لذلك خصص القرآن أمما دون أخرى للسلام و الأمن قائلا:

[و أمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم]

و ذلك بسبب ان هذا النوع الثاني من الأمم ينحرفون عن الرسالة ، و يبدلون دين اللـــــه.

و ربما توحي هذه الآية بأن سنة الحياة الأولية هي السلام و البركة لو لا انحراف البشر فيها.

هود : إني توكلت على الله

هدى من الآيات

و جاء هود مرسلا من عند الله الى قوم عاد ، و دعا قومه بذات النبرة الايمانية التي وجدناها عند سلفه الصالح نوح عليه السلام.

/ 1امرهم بعبادة الله حيث لا إله و لا معبود سواه ، و بين ان عبادتهم للطغاة أو الاصنام افتراء و ضلالة.

/ 2و بين لهم انه لايطالبهم بأجر ، و أن أجره على الله الذي فطره أفلا يعقلون فيعرفوا الفرق بين الرسول الصادق ، و بين أولئك الطغاة و الكهنة المفترين الذين يهدفون السلطة و الاستكبار في الارض!

/ 3و طالبهم باصلاح أنفسهم ، و العودة الى تعاليم الله لتزداد نعم الله عليهم ، و ليزدادوا قوة الى قوتهم الحالية ، و في غير هذه الحالة فهم يصبحون مجرمين مخالفين لله و لرسالته ، و يستحقون العذاب.

و لكن قوم هود ردوا دعواته الثلاث ، فقالوا : انك لا تملك بينة كافية على صدق رسالتك ، و اننا لن نترك آلهتنا ، و اننا لن نعطي ازمة أمورنا بيدك ، بالرغم من أنك لا تطالب بأجر ، و زعموا أن كلامه نوع من الجنون الذي مسه بسبب غضب الآلهة عليه ، فميز هود نفسه عن قومه و تبرأ من شركهم ، و أشهد الله على ذلك ، و توكل على ربه ، و تحداهم جميعا ، و أمرهم بألا يمهلوه بل يكيدون له ليعرف مدى ضعف كيدهم ، لانه يعتمد على الله الذي يملك كل دابة و يدبر أمورها ، و هو على صراط مستقيم .. يدعوا اليه و يجريه بقوته ، و بينلهم هود أنه قد انهى مسؤوليته ببلاغ الرسالة ، و أن الله سوف يبدلهم بغيرهم دون أن يضروه شيئا ، و أن الله على كل شيء حفيظ.

بينات من الآيات

رسالة هود و أبعادها

[50]أرسل ربنا الى عاد واحدا منهم يسميه ربنا بأخيهم لكي يكون أقرب الى قبول الرسالة ، و أوضح بيانا ، فأمرهم بعبادة الله و نبذ الشركاء . و فضح منذ اللحظة الاولى كذب و دجل الشركاء من دون الله . شأنه شأن سائر الرسل التي لا تهـادن في دين الله أبـدا.

[و الى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيـره إن أنتـم إلا مفترون]اي انكم تفترون على الله الكذب ، بادعائكم ان هذه الآلهة تمثل الله في الأرض ، و ربما تدل هذه الآية على أن انحراف البشر الاساسي يكون عادة في تبديل جوهر الدين لا إطاراته الخارجية ، فيفسر ذات النص الديني (الامر بعبادة الله ، و نبذ الشركاء) بمفهوم متناقض ليصبح داعيا الى عبادة الشركاء افتراء على الله ، مثلا :

يفسر قوله سبحانه : " و اطيعوا الله و اطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم " بان معناه اطاعة كل حاكم ظالم متجبر بمجرد تسلطه على الناس الذي يناقض تماما فكرة التوحيد و اطاعة الله هكذا حدث عند المسلمين اما عند عاد فقد حدث شبه ذلك ، حيث اطاعوا الشركاءباسم انهم مستخلفون من قبل الله ، و أطاعوا الأصنام باســـم أنها شفعاء عند اللـــه.

[51]و اذا كانت الكهنة سدنة معابد الاصنام ، و علماء السوء المحيطون ببلاط المستكبرين يبيعون علمهم على من يشتري ، و يستطيلون على الضعفاء ، فان هودا عليه السلام لم يطالبهم بأي أجر ، و كفى ذلك شاهدا و دليلا على صدق رسالته ، فلماذا اذا كان يعرض نفسه لكل تلك الصعاب ، ان لم يكن صادقا ، و هو لا يطالب الناس بأجر و لا بهدف الوصول الى غاية خاصة ؟!

[يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون][٥٢] و طالب هود قومه أن يصلحوا أنفسهم بطلب المغفرة من الله تعالى ، و إظهار الندم من الذنوب السابقة ، و بعدئذ العودة الى تعاليم السماء و تطبيقها.

[و يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه]

فاذا فعلوا ذلك فان الله سوف يفتح لهم أبواب رحمته بانزال قطر السماء بغزارة ، و اعطائهم المزيد من القوة و المنعة.

[يرسل السماء عليكم مدرارا و يزدكم قوة الى قوتكم]و في غير هذه الحالة يعتبرون مجرمين خارجين عن القانون و يستحقون العذاب.

[و لا تتولوا مجرمين]

[53]و رفض قوم هود رسالة الله ، و ادعوا انهم لم يقتنعوا بادلته و حججه ، و لكن كذبا إذ أن دافعهم الاصلي في رفضهم لها كان تمسكهم الأعمى بالتقاليد و عبادتهم للآلهة التي رفضوا تركها اعتمادا على كلام هود ، و ربما كان هناك سبب آخر لرفضهم للرسالة . هـواستنكافهـم عـن التسليـم لهود . و يوحي الى ذلك تعابيرهم التي كرر فيها (الخطاب) و نسبت الرسالة الى شخص هود ، بينما لم يكن هود سوى رسول حامل للرسالة . تدبروا في الآية:

[قالـــوا يا هود ما جئتنا ببينة و ما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك و ما نحن لك بمؤمنين]و قد زعموا أن ايمانهم ، إنما هو للرسول و في منفعته ، بينما كان الواقع غير ذلك تماما.

[54]و لكي يبـــرروا جهلهم بواقـع الرسالـــة ، و يغطـوا على نقـاط الضعف في كلامهـــم نسبوا الرسالة الى حالة مجهولة غيبية ، اعترت الرسول - مما لا يعرف أبعادها. -

[إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء]

و هكذا اعترفوا ضمنيا بخطأ أقوالهم السابقة ، و زعمهم بأن هودا إنما يدعوهم لنفسه . و هنا عرف هود ان العصبية العمياء تحيط بقلوب هؤلاء القوم فيرفضون الحق بلا تفكر لذلك.

[قال إني أشهد الله و أشهدوا إني بريء مما تشركون]و بدأت مرحلة جديدة من الصراع هي مرحلة المواجهة الساخنة حيث أعلن هود براءته من أفكارهم . و انفصاله عن مجتمعهم الفاسد.

المواجهة الساخنة

[55]و أعلن هود عن استعداده للمواجهة الآن و من دون مهلة ، و تحداهم لو عندهم كيد فليكيدوه به.

[من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون]

فما دام الكيد من دون الله ، و بعيد عن الاستعانة بالله فهو فاشل لا محالة.

[56]هل كان يملك هود قوة يعتمد عليها في مواجهته مع جميع قومه ؟ بلى قوة الله الذي آمن به و حمل رسالته ، و هذا أكبر شاهد على صدق دعوته.

[إني توكلت على الله ربي و ربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها]أي ما من حي يدب فوق الارض إلا و ربنا سبحانه يملك توجيهه كمن يأخذ بمقدم رأس أحد يوجهه أنى شاء ، و لكن الله لا يسير الكون عبثا أو لعبا ، و انما يسيره بعدالة و عبر صراط مستقيم.

[إن ربي على صراط مستقيم]

فكما يسير الله كل ما في الكون في طريق مستقيم ، فانه سبحانه يسير الذين يتوكلون عليه عبر ذلك الصراط الأقرب الى الهدف.

[57]و انذرهم هود حين لم ينفعهم التبشير و قال : إذا توليتم عن قبول الرسالة .فقد أديت مهمتي و هي إبلاغ الرسالة ، و ان الله سوف يهلككم و يأتي بآخرين مكانكم دون أن تقدروا على إلحاق الأذى بي .
[فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم و يستخلف ربي قوما غيركم و لاتضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ]

فهو يحفظ الأشياء بهيمنته عليها و تسلطه ، فاذا تركه هلك ، لان بقاءه مستمد من الله سبحانه و تعالى .

الا بعدا لعاد

هدى من الآيات

و كذب قوم هود برسولهم و جاء أمر الله بنجاة المؤمنين من عذاب غليظ ، و اهلاك الباقين و لم يبق منهم سوى العبرة ، فها هي عاد جحدوا بآيات ربهم ، و عصوا رسله ، و اطاعوا أمر الجبارين المتكبرين الجاحدين . فلحقتهم اللعنة و البعد عن رحمة الله في الدنيا و الآخرة . كل ذلك بسبب كفرهم بالله و برسالاته و رسوله.

بينات من الآيات

الا بعدا لعاد قوم هود

[58]و انتظر هود و الذين آمنوا أمر ربهم لأنهم منذ البدء توكلوا عليه - سبحانه - و لم يعتمدوا في دعوتهم على أنفسهم او على قبيلتهم او أية قوة مادية اخرى ، و بعد ان اعطيت لعاد فرصة كافية ليهتدي من يهتدي منهم بوعي ، و يضل من ضل بحجة . بعدئذ جاء أمر الله تعالى الذي هو فوق العادات و السنن المعروفةللناس ، و الدليل على ان العذاب الذي أخذ عادا كان خرقا للقوانين الطبيعية المعروفة ، ان العذاب لم يشمل المؤمنين و الكافرين الذين كانوا متواجدين في مكان واحد ، بل أخذ الكفار وحدهم بينما العذاب الطبيعي كالوباء و الزلزال و المجاعة لا يميز المؤمن من الكافر.

[و لما جاء أمرنا نجينا هودا و الذين آمنوا معه برحمة منا و نجيناهم من عـــذاب غليـــظ]هو ذلك العذاب الثقيل المتراكم الذي اخذ الكفار.

[59]لماذا عذب الله عادا بذلك العذاب الغليظ ؟ لأنهم بعد ان عرفوا آيات الله جحدوا بها ، و بعد ان عرفوا رسولهم الذي أرسل اليهم للطاعة عصوه ، و اتبعوا أمر كل جبار عنيد يتصف باستخدام العنف ضد الناس . فهو ديكتاتور مستبد برأيه ، لا يحكم بالشورى و لا يتبع الهدى.

[و تلك عاد جحدوا بأيات ربهم و عصوا رسله و اتبعوا أمر كل جبار عنيد][٦٠] و لأنحرافهم الفكري و لأنحرافهم السياسي و الاجتماعي لحقتهم لعنة الأبد ، و أبعدوا عن رحمة الله فعذبوا في الدنيا و الآخرة . كل ذلك لكفرهم باللـــه و برسول الله هـــود.

[و أتبعوا في هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هـــود]

صالح ينذر قومه

هدى من الآيات

أهلكت عاد ، و بنت ثمود مدينتها فبعث الله إليهم واحدا منهم (صالحا) و دعاهم الى توحيد الله و نبذ الشركاء من دونه ، و بين لهم ان مدينتهم ليست من عمل الشركاء بل من نعم الله ، فهو الذي انشأهم و استعمرهم في الأرض ، و ان عليهم ان يستغفروه ، و يصلحوا أخطاءهم الماضية ، و ان يتوبوا اليه فيعملوا في المستقبل بهداه فانه قريب يسمع استغفارهم ، و مجيب يحقق طلباتهم ، و لكنهم رفضوا رسالة صالح لا لأنهم شكوا فيه و في أمانته و اخلاقه ، و لا لأنهم لم يفقهوا ابعاد الرسالة ، بل لأنهم تعصبوا لآبائهم ، و قال صالح:
انه على بينة واضحة ، و ان الله سبحانه قد منح له فضلا منه و رحمة فهو لا يترك ربه ليسمع كلام قومه الذين لا يزيدونه غير خسارة و ضرر . و حين طالب قومه بآية قال لهم : هذه ناقة الله . أنه آية لكم فاتركوها تأكل في أرض الله و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب.

هكذا كانت رسالة صالح الى ثمود على نهج رسالات الله الى قوم نوح و عاد ،داعية الى توحيد الله ، و كان جواب الجاهلين واحدا و هو التعصب للآباء و لأفكارهم الباطلة ، أما العاقبة فهي واحدة ، كما سيأتي في الدرس القادم (أنشاء الله) .

بينات من الآيات

ركيزة الحضارة

[61]من ميزات رسالات الله ، انها تأتي بلغة الذين تهبط لهم ، و على يد واحد منهم ليكون ابلغ في التأثير ، و ابعد عن العصبية.

]و إلى ثمود أخاهم صالحا[

يقال بان ثمود قوم عرب عاشوا في القرى بين الشام و المدينة.

]قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره[

و نزلت هذه الكلمة على رؤوسهم كالصاعقة لأنها استهدفت تغيير مسار تفكيرهم ، و منهج حياتهم و قيم سلوكهم ، و نظام مجتمعهم السياسي و الإقتصادي.

عبادة الله يعني القبول بمناهجه و قيمه . عبادة الله تعني نبذ المسلمات الثقافية التي يؤلهها الناس ، و يعتبرونها مقدسة لا يحوم حولها ريب ، و لا يقترب اليها التفكير ، و لا يتناولها النقاش ، تلك المقدسات الموجودة في كتب الكهنة ، و التي يحكم من يخالفهابالخروج عن المجتمع ، و يجازى بأشد العقاب .

و عبادة الله تعني بالتالي رفض سلطة رؤساء العشائر و وجهاء البلد ، و اصحاب الثروة و القوة ، لذلك كانت ردود الفعل الاولية لهذه الدعوة ، هي الرفض المطلق خصوصا و ان المستكبرين و المفسدين

يوهمون الناس أبدا بأن التقدم و الرفاه و الأمن و الإزدهار و حتى الرزق الطبيعي الذي يوفر لهم كل ذلك جاء نتيجة الكيانالاجتماعي و الثقافي ، و النظام السياسي و الإقتصادي الذي يشرفون على تسييره ، فلو تزلزل الكيان و انهدم النظام فان كل الخيرات مهددة بالزوال هي الأخرى . لذلك ذكرهم رسولهم صالح (ع) بأن الخيرات إنما هي من الله الذي انشأهم ، و جعلهم قادرين على عمارة الأرض.

]هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها[

فاللـه هو الذي اودع في البشر الطموح و اعطاه القدرة ، و طوع له ما في الأرض ، و تلك هي شروط عمارة الارض و بناء المدينة ، و ليس النظام الفاسد سوى سارق لخيرات الناس ، و هاد لهم الى الهلكة . و لو لا رفض الناس للنظام الفاسد ، و عودتهم الى الطريق المستقيم فان المدينة مهددة بالفناء.

]فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب[

فمن أسماء الله الحسنى ، و كذلك من نعمه الكبرى هي انه سبحانه و تعالى فتح امام النـــاس باب الإستغفار و التوبة ، و اعطى الناس القدرة على تصحيح مسيرتهم الضالة ، و تطهير آثار الماضي الفاسد ، كما اعطاهم الفرصة لفتح صفحة جديدة مع الله ، و مع سنن الله ،و لنا في هذه الآية وقفتان للتدبر:

الاولى :ان ما في عالم اليوم من مدنية مزدهرة ، ليست بسبب الأنظمة الجاهلية الحاكمة هنا و هناك ، فليست الرأسمالية المادية ، و لا الإشتراكية الجاهلية هما سبب تقدم امريكا و أوروبا و اليابان من جهة ، و روسيا و أوروبا الشرقية من جهة ثانية ، و لقد رأيناكيف ان بلدانا كثيرة في العالم الثالث ازدادت تخلفا لما قلدت الغرب في ماديتها الرأسمالية، أو الشرق في جاهليتها الشيوعية أو الاشتراكية ، فمصر عبد الناصر لم يزدها تقليدها للشرق إلا سوء ، و كذلك مصر فاروق و أنور السادات ، ما ازدادت بالرأسمالية إلا سوء ،و السبب : أن التقدم لم يكن بسبب النظام

المادي و لا حتى بسبب فصل الدين عن السياسة ، أو الانفصال عن الجذور التاريخية مثل ما فعلته تركيا اتاتورك ، و انما السبب وراء المدنية و التقدم هو السعي من أجل عمارة الأرض عبر الإلتزام بسنن الله الصالحة، كالعمل و الاجتهاد و التعاون و التطلع ، و ما دامتهذه الشعوب ملتزمة بهذه السنن فهي تحافظ على مكاسبها ، و حين تنحرف و تعوض عن السعي بالفخر ، و عن الاجتهاد بالغرور ، و عن التعاون و التطلع بالمفاخرة و الإستغلال ، فانه مهددة بفقدان مكاسبها ، و هذه الحقيقة تدعونا الى الإعتقاد بأن الأنظمة المادية ، و العادات الجاهلية السائدة على الشعوب المتقدمة سوف تضيع مكاسبها و تفسد مدنيتها ، و ان بداية الضياع هو تجيير جهود الناس و مساعيهم لمصلحة فئة الأغنياء المتسلطين في الغرب ، أو حزب المستكبرين الحاكم في الشرق.

الثانية :ان الحضارات البشرية تبدأ بتطبيق سنن الله في تسخير الحياة كالسعي و التعاون و لكنها تنسى دور هذه السنن في تقدمها ، و تتوجه الى الاصنام و تزعم انها هي واهبة التقدم و الرفاه ، و هذا الإنحراف عادة بشرية تكاد تكون سنن ثابتة لو لا حرية البشر التي تتحداها ، و لولا رسالة الله التي تذكر البشر بهذه الحرية ، و من هنا لا يعترف الإسلام بحتمية الانهيار في الحضارات ، بل يضع لها فرصة الاستمرار عن طريق اصلاح نفسها ، و التوبة الى سنن الله ، و هذا ما تشير اليه هذه الآية التي تعطي المزيد من الأمل في الاستمرار في نهايتها و تقول : إن الله قريب مجيب ، أي ان إصلاح الفاسد ، و تجديد الحضارات (بالإستغفار و التوبة) أيسر مما يزعم البشر.

ضلالة الآباء أم هدى الرسالة :

[62]و كان قوم صالح غارقين في الماضي يعتزون بامجادهم الغابرة ، و يقلدون آباءهم ، و لذلك عادوا صالحا بالرغم من ثقتهم بشخصه.

[قالوا يا صالح قد كنت فينـا مرجـوا قبـــل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد أباؤنـــا]و لقدسية الماضي في أعينهم ارتابوا في الرسالة سلفا و من دون تفكر ، وقالوا:

[و إننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب]

ربما تشير الآية الى ان قوم صالح لم يكتفوا بالشك فيه ، بل اتهموه بالباطل ردا على تجهيل آبائهم ، و رميهم بالضلالة.

[63]و دافع صالح عن نفسه ، و بين سبب استقامته على هدى الرسالة رغم ضغوطهم ، و ضرب لهم مثلا بعمله هذا ، لكي يقاوموا ضغط الماضي ، و يتحرروا من قيوده ، فبين انه على سبيل واضح بينه له ربه ، و قد انتهى به السير في السبيل الى تحقيق مكاسب عملية من الهدى والطمأنينة و .. و .. و انه يخشى ربه ان عصاه ، و أنهم لا يقدرون على تقديم العون له.

[قال يا قوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي و ءاتاني منه رحمة]فلماذا لا تشكون في طريقتكم ، و تفكرون بأن هذا الطريق قد يكون صحيحا ؟! لا سيما و هناك خوف الضرر.

[فمن ينصرني من الله إن عصيته]

ان البشر يفكر في تغيير طريقته لو أحس بالخطر و خاف منه ، و لذلك ينبه القرآن الى إحتمال الخطر في حالة عدم التفكير في صدق الرسالة.

[فما تزيدونني غير تخسير]

فبالإضافة الى إحتمال الخطر ، هناك إحتمال الضرر و الخسارة ، و انعدام الربح و الكسب.

[64]و كآخر محاولة لهدايتهم ، و لقطع حجتهم ، و بعد أن طالبوه بالآية الواضحة ، أخرج الله لهم ناقة ، و قال لهم صالح (ع:)

[و يا قوم هذه ناقة الله لكم ءاية فذروها تأكل في ارض الله و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب]

الا بعدا لثمود

هدى من الآيات

انتهى وضع ثمود بمواجهة الرسالة و عقروا الناقة ، و حانت ساعة الجزاء الشديد ، حيث أمهلهم الله ثلاثة ايام فأتاهم وعد الله غير مكذوب ، و نجى الله صالحا و الذين آمنوا معه نجاة نابعة من رحمته ، و انقذهم من خزي ذلك اليوم المعيب ، و تجلت صفتا القوة و العزة لربنا الجليل ، فبقوته قدر على إهلاك الأعداء و نجاة المؤمنين ، و بعزته فعل ذلك ، و كان نوع العذاب صيحة أخذت الذين ظلموا فأصبحوا كأنهم هامدين في ديارهم ، و انتهى كل شيء ، ولم يبق من ثمود اي أثر كأنهم لم يكونوا هنا ، و لم يتمتعوا بالرفاه و ان ذلك كانجزاء كفرهم الذي سببه ابعادهم عن رحمة الله.

بينات من الآيات

جزاء السكوت

[65]جـاءت نهاية ثمود التي انحدروا إليها شيئا فشيئا بسبب استكبارهم عن الحق ، و ذلك حينما عقروا الناقة الآية الآلهية التي طالبوا بها ، و التي لم تكن تضرهمشيئا ، بل كانت تنفعهم ، و لم يعقر الناقة سوى اشقاهم و هو شخص واحد ، إلا ان رضا الجميع بفعله و سكوتهم عنه جعلهم شركاء في الجريمة ، و نسبت الخطيئة اليهم جميعا.

[فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد الله غير مكذوب]ان السلطة السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية الفاسدة هي التي بادرت بعقر الناقة في جو من الاستسلام الساذج ، و كانت تلك النتيجة الطبيعية للجمود و التقليد و الاعتزاز بالمكاسب ، و هكذا كان شأن الديكتاتوريات عبر التاريخ

، انها تنوم الناس على انغام المكاسب الظاهرة فتسلب منهم قدرتهم على التفكير السليم بعدئذ تقوم بأستغلالهم و استثمار طاقاتهم حسب ما تشاء ، و توردهم المهالك من دون اي خوف من التمرد او المقاومة.

[66]و هكذا فعلت السلطات المستكبرة بقوم ثمو د ، و لكن ثمود هي التي فعلت بنفسها هذه الجريمة حين سكتت في أول الأمر عن تلك السلطات . ان الرضا بالديكتاتورية هي الخطوة الأولى الى المجزرة ، لان الديكتاتورية تسلب أعز شيء عند الانسان هو عقله و تفكيره .. فيكون ضررها اكبر من نفعها مهما كان نفعها كبيرا . لذلك جاء الأمر الالهي الحاسم.

[فلما جاء أمرنا نجينا صالحا و الذين آمنوا معه برحمة منا و من خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز]العزة هي مظهر القوة في الحقل الاجتماعي ، و الله لا يدع قيم الحق قائمة في النفوس و العقول و بين اضلع الكتب و الخطب ، بل يجسدها في ضمير الواقع فاذا بالظلم يتحول إلى ظلمات ، و الجريمة الى عقاب ، و الفساد الى خراب.

[67]و اذا بالسكوت عن الظلم ، و الرضا بالجريمة ، و الاستسلام أمام الفساد يتحول كل ذلك الى صيحة مدمرة . هي صيحة الحق الذي سكتوا عنه ، و هي عقاب الجريمة التي رضوا بها ، و هي نهاية الفساد الذي استسلموا له.

[و أخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين]لقد كانت الصيحة في لحظة واحدة بحيث اسكتت حناجر الساكتين عن الظلم ، و اهمدت حركة المغرورين بمكاسبهم ، و جعلتهم يسقطون على وجوههم (في حالة الجثوم) تلك الوجوه التي استكبرت عن قبول الحق.

[68]ايــن تلك الديار التي تمتعوا بها و اقاموا دهرا فيها ؟! اين الصخب و الحركة ، و اين العمــارة و الأثاث ؟! لقد شمل التخريب الساحق كل زاوية من زوايا ديارهم ، و كأنها كانت خالية من السكان ..

[كأن لم يغنوا فيها]

اي لم يقيموا فيها.

[ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود]

لقد كفروا بعبادة الله و برسالته ، و برسول الله الذي بعث ليطاع باذنه ، و لكن كفرهم هذا كان - في الواقع - متوجها مباشرة الى ربهم جل جلاله ، و هذه هي الحقيقة الكبرى التي ينساها او يتجاهلها البشر فيفصل بين الله و رسالاته ، و يريد ان يكفر بالرسالات كفرا عمليا و يحتفظ بأيمانه بالله ، و هذا هو التناقض البعيد و المستحيل.

ان ثمود بعدت عن رحمة الله ، و عن الذكر الحسن ، و عن ثواب الآخرة بسبب محاولتها الفصل بين الله و رسوله . فهل نكرر التجربة ؟!

اتعجبين من أمر الله

هدى من الآيات

يتابع السياق القرآني قصة الرسالة في عهد ابراهيم (ع) ، و يلخص قصته التي تتصل بقوم لوط . و يبدأ الحديث بجو السلام و البشارة التي يختلط بها الخوف ، لقد جاءت رسل الله و ملائكته الى ابراهيم (ع) يزفون اليه البشرى بأبنائه - الذين كانوا يشكلون امتدادا لخطه - ، و هلاكا لأعدائه.

فجاء اليهم ابراهيم بالطعام و كان عجلا مشويا ، و لكنهم لم يلامسوه فتوجس منهم خيفة ، و أثير عنده سؤال : لماذا لا يأكلون ؟! فطمأنوه و قالوا : اننا رسل الله و قد ارسلنا الى قوم لوط ، و بينما كانت امرأته قائمة تصلي او تقوم بخدمة الضيوف ضحكت تعجبا و فرحا بهلاك قوم لوط فبشرها الله باسحاق و من بعده يعقوب ، و لم تتمالك من شدة التعجب فصاحت : كيف الد و انا عجوز و بعلي شيخ طاعن في

السن ؟! فرد عليها الرسل قائلين : لماذا تعجبين من أمر الله . ان رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت لان الله يفعل ما يحمد عليهو هو رفيع المقام سبحانه ؟!

هكذا مهد الله لقصة اصحاب لوط الذين كانت رسالة ابراهيم (ع) - نازلة لهم ايضا. -

بينات من الآيات
ابراهيم و البشارات الثلاث
[69]ظل ابراهيم يقاوم و يقاوم . و لم يرق الى قلبه السامي اليأس أو الشك ، و حانت الآن ساعة البشارة المنتظرة . لقد أرسل الله اليه رسله بصورة رجال حسان الوجوه تعظيما له و تكريما لجهاده الطويل ، فجاؤوا يبشرونه:

أولا : بأن الله اذن له بالنصر.

ثانيا : بأن اعداء الرسالة سيهلكون ، الا و هم قوم لوط الذين بعث الله اليهم اول المؤمنين برسالة ابراهيم .

ثالثـــا : بـأن الله سوف يرزقه - بعد طول المعاناة و اليأس - اولادا يتابعون دربـه..

[و لقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام]تبادل رسل الله اول ما تلاقوا مع ابراهيم (ع) و ربما كانوا الوحيدين من ضيوف ابراهيم الذين اخرجوا الشيخ الذي اكلت سنون النضال عمره المبارك من غربته الروحية في رحم الصحراء . لذلك بادر ابراهيم باحضار الطعام السمين اليهم و هو عجل مشوي .

[فما لبث أن جاء بعجل حنيذ]

العجل ولد البقرة و الحنيذ المشوي.

[70]و انتظر ابراهيم ضيوفه ليأكلوا او حتى ليبادر الى التهام العجل الحنيذ على عادة الراحلين عبر الصحراء ، و لكنهم لم يفعلوا ، فأنكرهم كيف لا يأكلون ؟! و خاف منهم لأن الضيف الذي لا يأكل يضمر الشر ، و لكنهم سرعان ما بددوا خوفه الذي احس به ، و اظهروهعلى حقيقة الأمر ، و اعلنوا مهمتهم و هي بشارة بهلاك قوم لوط بعد طول عنادهم.

[فلما رءا أيديهم لا تصل إليه نكرهم و أوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط][٧١] و ظهرت في الصورة المرأة الصبورة التي رافقت زوجها ابراهيم في جهاده الطويل و هي سارة بنت هاران ابنة عم ابراهيم ، و زوجته و رفيقة دربه ، فاذا بها تضحك من بشارة الرسل و هي قائمة تصلي ، او تخدم الضيوف.

[و امرأته قائمة فضحكت]

و هنا بادر الرسل باطلاق البشارة الثانيـــة و الأعجب حيث بشروها بانجاب الأولاد..

[فبشرناها باسحاق و من وراء اسحاق يعقوب]

[72]و تعجبت كيف تلد و هي عجوز و زوجها شيخ طاعن في السن.

[قالت يا ويلتى ء الد و أنا عجوز و هذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب][٧٣] و عاد الرسل يبشرونهم بثالثة البشارات و اعظمها و هي مرضاة الله التي تتجسد في الرفاه و الخير و الرحمة من الله ، و في الانتشار و التقدم و التعامل ، و بالتالي البركات من جهة ثانية ، لانهم أهل بيت الجهاد و الايمان و لأن الله

حميد مجيد.

[قالــوا أتعجبيــن من أمر الله رحمت الله و بركاته عليكم أهل البيت إنــه حميـــد مجيـــد]ان ربنا يحمده الناس بكرمه و فضله الواسع.

جعلنا عاليها سافلها

هدى من الآيات

و بعد ان ذهب عن إبراهيم الروع بسبب خوفه من الملائكة المرسلين . و استلم منهم البشــرى . هنالك أخذ يتضرع الى الله لنجاة قوم لوط . حقا كان ابراهيم قمة في الحلم . حيث لا يزال يرجو نجاة قومه . و قد اكتسب ذلك بعلاقته بربه العظيم . بيد ان الله اخبره ان اجل قوم لوط قد اتى . و ان لا مرد لعذاب الله.

في الجانب الآخر من الصورة نجد لوطا (ع) يضيق ذرعا بالمرسلين لعلمه بفساد قومه الذين اخذوا يهرعون إليه ، استمرارا لعاداتهم السيئة . و طلب منهم لوط ان ينكحوا النساء اللاتي هن اطهر لهم من الشذوذ . و رجاهم بالا يتعرضوا لضيفه . و انتخاهم و قال أليس فيكمرجل رشيد ؟!

فرفضوا و عرف لوط الا ملجأ له إلا الله ذا الركن السديد . هنالك كشف الرسل عن أنفسهم . و طمأنوه و امروه بأن يترك المدينة ليلا . لأن ميعاد العذاب قريب عندالصباح و هكذا جعل الله مدن قوم لوط عاليها سافلها و امطر عليها حجارة من سجيل منضود . سجلت باسمهم . و كانت جزاء الظالمين . و هلكوا و بقيت منهم عبرة للتاريخ.

بينات من الآيات

[74]حين سكنت نفسية ابراهيم (ع) من المفاجآت ، و بشر بالنصر ، عاد اليه حنانه المتدفق نحو انقاذ الناس من الجاهلية ، و اخذ يجادل ربه في قوم لوط و يتضرع اليه ان يؤتوا فرصة اخرى للهداية.

[فلما ذهب عن إبراهيم الروع و جاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط][٧٥] و يشهد جدل ابراهيم (ع) و دفاعه المستميت عن الناس على مدى اهتمام الرسل بالناس ، و ان دعوتهم ليست من اجل مصالح ذاتية ، بل من اجل حبهم العميق للأخرين.

[إن أبراهيم لحليم أواه منيب]

فبحلمه العظيم صبر على اذى قومه ، على امل ان يهتدوا في يوم من الأيام ، و لا يزال ينتظر هدايتهم لا هلاكهم ، و لأنه دائم التضرع الى الله ، و قلبه متصل أبدا بالله عن طريق المناجاة نراه يدعو الله لكي ينقذ قوم لوط ، و يعطيهم فرصة اخرى للهداية دون ان يعلم الغيب ، و انه لا أمل فيهم أبدا ، ولذلك فهو أواه ، بيد انه يسلم لله الأمر و ينيب الى ربه و لا يجعل الدعاء اذا لم يستجب سببا لعدم رضاه من الله فهو إذا منيب.

[76]و لأن ابراهيم منيب تجده يعود عن قراره بطلب الخلاص لقوم لوط ، و ذلكحين قال له ربه:

]يـا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك و إنهم ءاتيهم عذاب غير مردود [فما دام الأمر لم يصبح جديا و محتما يجوز ان يسعى الفرد لتغييره ، بالعمل او بـــالدعاء ، و أما اذا قضى الله أمرا فلا يمكن تغييره.

في ضيافة لوط (ع: (

[77]و انتقل رسل الله من عند ابراهيم (ع) الى بيت لوط (ع) ، و حدثت هناك المفاجأة الثانية حيث ضاقت الأزمة لتنفرج ، و اشتدت لتحل.

]و لما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم و ضاق بهم ذرعا و قال هذا يوم عصيب]ان لوطا (ع (حسب ان هؤلاء الرسل الذين جاؤوا اليه في صورة فتية حسان الوجوه ، حسبهم انهم ضيوفه و كان قومه يفعلون الفاحشة بالضيوف ، لذلك استاء منهم و ضاق ذرعا بحضورهم ، و رأى ان ذلك اليوم شديد عليه ، و انه لا حيلة له في عمل شيء ابدا ، لأنه و حيد بين قوم طغاة لا يؤمنون بدين ، و لا يدينون بشرف.

[78]و لما رأى قومه الفتية اسرعوا الى بيت لوط (ع) ليفعلوا ما اعتادوا عليه من الفاحشة ، و دعاهم لوط (ع) الى ترك الشذوذ الجنسي و العودة الى سنة الله في الحياة بالزواج من البنات.

[و جاءه قومه يهرعون إليه]

أي يسرعون الى بيته.

]و من قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم]قالوا :بأن لوطا (ع) طالبهم بزواج البنات من امته و هن بناته بالأبوة الروحية و الرسالية ، كما قالوا : بانه عرض عليهم بناته ليتزوجوا منهن ، و كان ذلك العرض السخي من اجل نهيهم عن المنكر ، باي وسيلة ممكنة.

[فاتقوا الله]

و هكذا أمرهم بتقوى الله ، و ترك العادة السيئة ، بعد ان اوضح لهم الطريق السوي لأشباع الشهوة الجنسية ، و طالبهم لوط برعاية الشرف.

[و لا تخزون في ضيفي]

فان لم يكن لكم دين فلا اقل من التمسك بالعرف الذي ينكر طبيعيا اغتصاب الضيوف.

[أليس منكم رجل رشيد]

[79]و كان جواب قومه بالغا في الميوعة و الرعونة.

]قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق[

أي فيما يتصل بقضية البنات ، لابد أن نتزوجهن و الزواج حق نعمل به و نمشي على هداه ، أما الآن فنحن نريد تلك اللذة التي لا توجب علينا تكاليف و مسؤوليات.

[و إنك لتعلم ما نريد]

ربما كان قوم لوط قد استصعبوا قوانين الزواج على أنفسهم ، مما دفعهم إلى إشباع الغريزة بالشذوذ ، و ربما كان لوط يدعوهم الى التخفيف من قيود الزواج مما قد يدل عليه قوله عليه السلام : (هؤلاء بناتي) و قولهم : (ما لنا في بناتك من حق. (

[80]و قطع لوط أمله منهم ، و استبد به اليأس من كل شيء ، و قال بكلمات تتفجر أسى.

[قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد]

تمنى لو كانت لديه قوة قادرة على مواجهتهم ، أو كانت لديه عشيرة تمنعه منهم.

أليس الصبح بقريب:

[81]هكذا اشتدت الازمة و ضاقت عليه المشكلة ، و عندها ترجى رحمة الله ، و هكذا اظهر الضيوف الذين حاول الجاهليون الاعتداء الخلقي عليهم ، اظهروا واقعهم و بينوا أنهم ملائكة الله.

[قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك]

و جاءت الاوامر متلاحقة صارمة:

ألف : [فأسر بأهلك بقطع من الليل]

بعد أن يسدل الليل ستاره و يذهب ردح منه و تهجع العيون ، و تأوي النفوس الى مضاجعها.

باء] :و لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم]لا ينظر الى ما وراءه ليعرف كيف سيكون حال قومه ، بل يبقى منفصلا عنهمنفسيا لكي لا يشاركهم العذاب ، و لذلك أصاب امرأة لوط ما اصابهم من العذاب بسبب انتمائها النفسي و القلبي إليهم.

ثم جاء الأمر الالهي الصارم على لسان الملائكة.

[إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب]

[82]ماذا صنع الله بقوم لوط ؟

لم يفعل بهم إلا ما فعلوه بأنفسهم . انهم غيروا سنن الله ، و حولوها عن وضعها العادي فاذا بهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، فقلب الله مدينتهم على رؤوسهم تنكيلا.

[فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها]

و انهم لم يقبلوا وصايا الله ، و مواعظ الانبياء التي تستمطر الرحمة ، فاذا بهم يتعرضون لعذاب الله الشديد يمطر عليهم من السماء بدل البركات.

[و أمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود]

ربما يكون معناه الحمم المتلاحقة و كأنها منضودة بما يشبه حجارة البراكين المتفجرة ، و الله أعلم.

[83]و قد قدر الله تلك الحجارة لمثل هذه الطائفة المنحرفة ، و كأنها قد وضعت عليها علائم خاصة تقول هذه لهؤلاء.

[مسومة عند ربك و ما هي من الظالمين ببعيد]

شعيب : أوفوا المكيال و الميزان

هدى من الآيات

في سياق حديث القرآن الكريم عن الشعوب الضالة . يذكرنا بمصير مدين قوم شعيب الذين ابتلوا بالفساد الاقتصادي ، فأخذوا ينقصون المكيال و الميزان فنهاهم شعيب عن ذلك بعد ان أمرهم بعبادة الله و اتباع مناهجه في الحياة الاقتصادية ، و حذرهم من أن الرفاه قد يزول بسبب ظلمهم ، و يحيط بهم عذاب الله ، كما نهاهم عن الفساد و أمرهم بالقسط ، و ذكرهم بأن عليهم الانتفاع بهدى الله و رسالته و ذلك خير لهم . و أكد بانه ليس سوى مبلغ للرسالة ، و ليس وكيلا عنهم . بيد انهم رفضوا قبول دعوته بالرغم من قبولهم لشخصه ، فبعد ان اعترفوا بانه صاحب دين و التزام بالشعائر ، و أنه حليم رشيد لم يقبلوا بأن يتدخل في شؤونهم و يأمرهم بترك عبادة ما كان يعبده آباؤهم ، أو تحديد حريتهم في أمور الاقتصاد.

بينات من الآيات

في طرف الجزيرة العربية كانت مساكن مدين تلك القبيلة التي وسع [84]

عليها الله الرزق فبطروا ، و أخذ بعضهم يظلم بعضا ، ويحاول البعض الأنقاص من البعض . و ان يفسد ما . في الأرض

فجـاء شعيب رسولا من قبل الله اليهم و أمرهم بعبادة الله ، و تنفيذ تعاليم السماء ، و نهاهم عن عبادة ذواتهم ، أو عبادة الثروة الزائلة ، كما نهاهم عن الانقاص في المكيال و الميزان لأنه نوع من الظلم و العلاقة الفاسدة بين أبناء البشر و التي سوف تؤدي الزوال الخير ، و حذرهم من يوم يحيط بهم عذابه . فلن يجدوا مفرا منه

و إلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره]ربما كانت مدين كغيرهم من [الشعوب الجاهلية ، تدعي الايمان بالله ظاهرا ، و لكنهم لا يطبقون واقعا رسالة الله . فلذلك امرهم شعيب بعبادة الله و تحكيم سيادته التشريعية على واقعهم الاجتماعي ، دون أن يكتفوا بترداد اسمه . سبحانه ، بينمـا يتخذون آلهة أخرى للعبادة ، كالكهنة و الطغاة و الاشراف و اصحاب المال

[و لا تنقصوا المكيال و الميزان إني أراكم بخير]

أي إني أجد حياتكم المادية مرفهة ، و لكن هذه الحياة قد تزول في اية لحظة بسبب الظلم الاجتماعي .الذي تمارسونه

[و إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط]

: عوامل الانهيار

و أمرهم شعيب بأن يوقفوا رحلة الانهيار التي بدأت في حضارتهم المزدهرة عبر ثلاث ثغرات هامة [85] : وجدت فيهم و هي

الاستهانة بالمقاييس الاقتصادية التي كانت موضع ثقة الجميع كالمكيال و الميزان فاذا بخسوا :أولا اذ ان النظام يقوم على أساس الثقة و التوافق . فيهما فان النظام الاجتماعي ذاته يصبح مهددا بالزوال الاجتماعي عليه ، و لا ثقة و لا توافق مع الاحتيال على المقاييس و القيم التي يجب ان تكون ثابتة و . معتمد عليها

ثانيا : تبديل العلاقة الاجتماعية السابقة التي كانت تعتمد على احترام حقوق الآخرين ، و التنافس البناء من أجل الحصول على خيرات الأرض بتعاون الجميع و ثقتهم ببعضهم ، و لكنهم بدلوا ذلك بعلاقة الصراع و محاولة كل فرد أو كل جبهة أو جماعة السطو على حقوق الآخرين ، مما يهدد محور المجتمع ، و أساس . المدنية

ثالثا : تبديل علاقة الانسان بالطبيعة من علاقة الاصلاح و التعمير و البناء ، و الانتفاع المعقول الى علاقة . الافساد و الهدم ، و الاسراف في الانتفاع أو الشذوذ فيه

هكذا جاءت رسالة الله لأهل مدين على يد شعيب في لحظة التحول . حيث كانوا أحوج شيء الى : (الهداية . فقال لهم شعيب (ع

[و يا قوم أوفوا المكيال و الميزان بالقسط]

. أي احترموا المكيال و الميزان ، و ليكن كيلكم و وزنكم بالعدل التام

[و لا تبخسوا الناس أشياءهم]

سواء كانت مادية أو معنوية ، و ليكن همكم أداء حقوق الآخرين و احترامهم ، و الاعتراف بمنزلتهم و كرامتهم دون أي نقص في ذلك .

[و لا تعثوا في الأرض مفسدين]

توجيه المستقبل :

و أضاف شعيب (ع) في توجيهه لقومه الجاهلين توجيها هاما يعتبر ضمانا لاستمرار الحضارة و حفظا [86] لها من أسباب التدهور و الزوال ، و هو التسامي عن جاذبية المادة ، و التحليق في سماء الايمان ، و الاعتقاد العملي بالمستقبل ، و بالتالي التسلح برؤية بعيدة فقال :

[بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين]

ما هي بقيت الله ؟

انه رضوانه و ثوابه .

و السـؤال هو : كيف يمكن لقوم مثل قوم شعيب الحصول على الباقيات الصالحات ؟ إلا بترك الموبقات التي ذكرت في الآية السابقة ، ثم العمل في سبيل الله باطعام المساكين ، و أداء حقوق الفقراء ، و بناء المساجد و المرابط ، و الانفاق من أجل بناء السدود و القنوات و الطرق و .. و .. ، و كلما هو في سبيل الله . أليس كذلك ؟!

و العمل بكل ذلك يوجب استمرار الحضارة في الازدهار للمستقبل ، و عدم الاسراف في استهلاك المكاسب الآن ، و كل حضارة تقوم بالأزدهار في بداية تكونها و لكنها تتوقف عن الازدهار ، ثم تبالغ في الاستهلاك انها تنتهي و تزول ، أما اذا استمرت الحضارة في العمل للمستقبل ، و في ايجاد علاقة ايجابية وبناءة مع الناس و مع الطبيعة ، فانها سوف تبقى و تستمر ، لذلك اعتبرنا هذا الأمر الآلهي الذي أظهره شعيب ضمانا لاستمرار الحضارة . و تشير بعض الآيات القرآنية الاخرى الى هذه الحقيقة مثل قوله سبحانه .

(المال و البنون زينة الحياة الدنيا و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا و خيرأملا " (١ "

زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين .. الى قوله .. و الله عنده حسـن المآب " (٢)ثم قال " شعيب :

[و ما أنا عليكم بحفيظ]

أي لا تفتروا : بأن القائد قادر على منع العذاب عنكم من دون أن تفعلوا شيئا صالحا ، أو تغيروا ما بأنفسكم ، بل عليكم أنتم المسؤولية أولا و أخيرا ، و ربما أشارت الآية الى حالة حضارة اعترت قوم شعيب كتلك التي تعتري الشعوب المتخلفة فيلقون كل المسؤولية علىقياداتهم .

و لكن قوم شعيب ظلوا على وضعهم الفاسد و عيروا شعيبا [87]

قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا]و كأن عبادة الأصنام تحولت عندهم الى دين [مقدس لأنه من عمل الأباء ، و لا يجوز ان يعارضها شخص مؤمن كشعيب ، و كما عادة الاصنام كذلك سائر الأنظمة كالملكية الفردية المطلقة .

[أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء]

و نكسب المال بطريقة مشروعة أو غير مشروعة ، سواء نظلم الناس أو بالبخس(١) ٤٦ / الكهف

آل عمران / 14 (2)

. عنهم ، و أن نصرف المال في أي وجه نشاء صلاحا كان أم فسادا

[إنك لأنت الحليم الرشيد]

و لست بشاب طائش يخالف تقاليد الآباء أو يعترف بحقوق أصحاب المال و مزاياهم ، و يبدو من حديث قوم شعيب أنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا حتى رأوا المعروف منكرا ، و المنكر معروفا ، و أصبح الفساد دينا . (مقدسا عندهم و ليس فقط سلوكا شاذا ، لذلك لم تنفعهم نصيحة شعيب(ع

شعيب : لا يجرمنكم شقاقي

هدى من الآيات

لقد انتهى الدرس السابق في الوقت الذي كان قوم شعيب يجادلونه في خرافاتهم و اصنامهم ، أما . شعيب فهو لا يزال يقاوم ضلالتهم و يحتج عليهم

. أولا : بأنه قد هداه الله ، و جعله على بينة واضحة

. ثانيا : إن حياته الشخصية على خير وجه

. ثالثا : إنه أول من يتبع مناهج ربه التي يأمرهم بها

. رابعا : إن هدفه هو إصلاح الوضع الفاسد بكل ما أوتي من مقدرة

إنه لا يهمه الفشل ، كما لا يستبد به اليأس لأنه يرى ان توفيقه من الله ، و ان عليه لا على :خامسا نفسه او على الناس توكله و اعتماده و معاده ، و حذرهم من ان عنادهم ضده ، و تحديهم له قد يوقعهم في ذات المهلكة التي وقعت فيها الشعوبالضالة سابقا ، مثل قوم نوح و قوم صالح و قوم لوط القريبين . منهم زمانا أو مكانا أو كلاهما

ثم أمرهم شعيب مرة اخرى بالاستغفار و التوبة الى الله فانه رحيم ودود ، و لكنهم حين لم يجدوا جوابا لا نفهم كثيرا مما تقول ، و ان مقياسنا في تقييم كلامك ليس ذات الكلام بل ذات الشخص : قالوا له المتحدث ، و إنا لنراك ضعيفا فينا ، و لو لا وجود اصحاب لك وعشيرة . اذا لرجمناك ، فقال لهم : هل ان . عشيرتي اعز عندكم من الله خالقكم و خالقي المحيط بكم ، و الذي تركتم مناهجه

اعملوا ما شئتم أما انا سأعمل و سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخزي ، و هل : ثم تحداهم و قال لهم أنا كاذب أم أنتم ، و انتظروا إني معكم رقيب و شاهد ، و جاء أمر الله فأنجى الله شعيبا و المؤمنين معه برحمة منه بينما أخذتهم الصيحة فأصبحوا جاثمين في ديارهم كما لو لم يقيموا هناك ، فابعدهم الله و . لعنهم كما ابعد ثمود من قبلهم

بينات من الآيات

شخصية الرسول

يظل الاسلوب الرسالي . هو ذلك الأسلوب الذي ينير القلوب ، و يتحدث الى الوجدان بعد ان يرفع [88] عنه الصدأ ، و يكشف عنه الحجب ، و هكذا فعل شعيب حيث بدأ من نفسه و وضع أمام قومه واقعا : جديدا هو سلوكه

[قال يا قوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي]

ماذا لو أكشف سلامة رؤيتي ، و صواب طريقي ، و انني على بينة واضحة اعطاها الله لي . افلا يكون من الخطأ عدم التفكر في ذلك اساسا و رده رأسا ؟!

[و رزقني منه رزقا حسنا]

فاخلاقه الفاضلة ، و سلوكه الحسن ، و إرادته الصلبة ، و صحته الجسدية ، و تكامله المعنوي بالأضافة الى رسالات الله التي لا يشك احد في انها نعمة كبرى . كل اولئك شواهد على ان سبيله مستقيم .

[و ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه]

فانا اول من يطبق الرسالة كدليل على صدقي ، و قناعتي بها ، و عدم تكلفي فيها .

[إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت]

فبالرغم من اختلاف الناس في مفهوم الصلاح و الفساد في بعض الأبعاد التفصيلية ، فأن اكثر الناس يعلمون ان تقريب القلوب ، و تأليف التقوى ، و الوفاء بالمكيال و الميزان ، و الأهتمام بالمحرومين و المستضعفين ، كل ذلك صلاح ، و ان الرسول يقوم شخصيا بفعل الصلاح ، و يضرب بذلك مثلا على حقيقة رسالته .

[و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب]

ان نسبة نجاح خطط الرسل تفوق كل النسب ، مما يكشف عن عامل غيبي غير معروف للنجاح ، و هو توفيق الله و سلامة الرؤية الرسالية ، و هذا بدوره دليل على صدق الرسالة ، كما ان وضع الخطط التي تعتمد على الغيب و تأخذ الغيب كعامل هام في معادلة الخطة ، دليل آخر على صدق الرسالة و هذا هو التوكل ، و الرسول رجل غيبي ليس في تصرفاته و انما ايضا في انابته الى الله ، و ضراعته الدائمة ، و صلاته الكثيرة ، و رشده و حلمه ، و كان شعيب (ع) من اكثر الأنبياء إنابة الى الله حتى قالوا : إن كريمته قد ابيضت من كثرة البكاء خشية منالله ، و شكرا له

بينات من الآيات
شخصية الرسول

يظل الاسلوب الرسالي . هو ذلك الأسلوب الذي ينير القلوب ، و يتحدث الى الوجدان بعد ان يرفع [88] عنه الصدأ ، و يكشف عنه الحجب ، و هكذا فعل شعيب حيث بدأ من نفسه و وضع أمام قومه واقعا جديدا هو سلوكه :

[قال يا قوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي]

ماذا لو أكشف سلامة رؤيتي ، و صواب طريقي ، و انني على بينة واضحة اعطاها الله لي . افلا يكون من الخطأ عدم التفكر في ذلك اساسا و رده رأسا ؟!

[و رزقني منه رزقا حسنا]

فاخلاقه الفاضلة ، و سلوكه الحسن ، و إرادته الصلبة ، و صحته الجسدية ، و تكامله المعنوي بالأضافة الى رسالات الله التي لا يشك احد في انها نعمة كبرى . كل اولئك شواهد على ان سبيله مستقيم .

[و ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه]

فانا اول من يطبق الرسالة كدليل على صدقي ، و قناعتي بها ، و عدم تكلفي فيها .

[إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت]

فبالرغم من اختلاف الناس في مفهوم الصلاح و الفساد في بعض الأبعاد التفصيلية ، فأن اكثر الناس يعلمون ان تقريب القلوب ، و تأليف التقوى ، و الوفاء بالمكيال و الميزان ، و الأهتمام بالمحرومين و المستضعفين ، كل ذلك صلاح ، و ان الرسول يقوم شخصيا بفعل الصلاح ، و يضرب بذلك مثلا على حقيقة رسالته .

[و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب]

ان نسبة نجاح خطط الرسل تفوق كل النسب ، مما يكشف عن عامل غيبي غير معروف للنجاح ، و هو توفيق الله و سلامة الرؤية الرسالية ، و هذا بدوره دليل على صدق الرسالة ، كما ان وضع الخطط التي تعتمد على الغيب و تأخذ الغيب كعامل هام في معادلة الخطة ، دليل آخر على صدق الرسالة و هذا هو التوكل ، و الرسول رجل غيبي ليس في تصرفاته و انما ايضا في انابته الى الله ، و ضراعته الدائمة ، و صلاته الكثيرة ، و رشده و حلمه ، و كان شعيب (ع) من اكثر الأنبياء إنابة الى الله حتى قالوا : إن كريمته قد ابيضت من كثرة البكاء خشية منالله ، و شكرا له .

و ما أمر فرعون برشيد

هدى من الآيات

لقد أرسل الله موسى بآياته البينات وبسلطان مبين . الآيات كانت تلك القيم التي دعى اليها موسى ، و تلك الحقائق التي ذكر بها ، و تلك الفطرة المنسية التي استثارها في قلوبهم . و تلك المعرفة التي جهلوها ، فاعادها الى ذاكرتهم ..

و جاء موسى فرعون و ملأه بسلطان مبين ، الا أن الملأ لم يتبعوا ذلك السلطان ، بل اتبعوا امر فرعون غير الكامل ، و غير البالغ مستوى الرشد ، لانه يقود قومه الى بئس المقام و هو النار كما ان اللعنة تلاحقهم ، في الدنيا و الآخرة ، بئس العطاء ، و بئست الضيافة و القرى .

هل ظلمهم الله ؟ كلا .. انما ظلموا انفسهم حيث اتبعوا فرعون و سائر الآلهة من دون الله سبحانه ، فلم تنصرهم الآلهة حين نزل عليهم عذاب الله ، و كان أخذ الله شديدا و أليما .

فمن خاف عذاب الآخرة اعتبر بأبناء القرى ، و من لم يخف يوم القيامة حيث يجمع الناس و تشهده الملائكة فما عسى تنفعه الآيات و العبر ؟

عاقبة البشر بين شقاء النار و سعادة الجنة

هدى من الآيات

انتهى الدرس السابق بالتحذير من يوم القيامة المشهود ، و تأكيدا لذلك يبين هذا الدرس بأن تأخير يوم القيامة ليس بلا حدود ، بل هنالك اجل ممدود ينتهي اليه التأخير ، فنحن نقترب اليه على قطار الزمن ، و حينئذ يظهر سلطان الله حيث لا تستطيع اي نفس ان تتحدث الا باذن الله ، و ينقسم الناس الى سعداء و اشقياء ، أما الاشقياء فهم بين الموت و الحياة في النار لهم شهيق و زفير ، بسبب سوء حالهم ، و يبقون في النار ما دامت السماوات و الأرض ، إلا أن يشاء الله ، أما السعداء فهم في الجنة خالدون ما بقيت السماوات و الارض إلا أن يشاء الله ، و تلك الجنة عطاء لا ينقطع من قبل الله

حين يضيق صدرك

و لكن الرسول بشر ، و كان عليه الصلاة و السلام يحب رسالته و يتفانى من أجلها ، فلم يكن من السهل عليه أن يسمع استهزاءهم لذلك سلاه ربه سبحانه قائلا : [97]

[ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون]

. و أمره بان يسبح الله كلما ضاق صدره فانه منزه عن أقوالهم [98]

[فسبح بحمد ربك]

التسبيح اشارة الى اسماء الله الجلالية ، و الحمد اشارة الى أسمائه الكمالية . على المؤمن أن ينزه الله .. عن الضعف و العجز و الموت و الغفلة و .. و .. كما يذكره بانه الحي القيوم العليم القدير و .. و

[و كن من الساجدين]

. لله بالصلاة ، و كلما سجد العبد لربه كلما تعالى عن التأثر باذى الكفار ، و استهزائهم

. و لكي يحصل الداعية على أعلى مراتب القرب و الزلفى لابد أن يديم العبادة لله [99]

[و اعبد ربك حتى يأتيك اليقين]

فلا أجل للعبادة الا لقاء الله ، و أفضل تطلع للإنسان المسلم أن يختم حياته بخير و قد وصى يعقوب بنيه قائلا : " و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون " و سمى الموت باليقين لانه يكشف للبشر الحقائق العارية حتى يحصل منها على يقين كامل ، و الخطاب ليس فقطللرسول بل لكل قارئ . أو لم ينزل القرآن على . . (إياك أعني و اسمعي يا جارة) لغة